



حصاد القلم

عاصم منصور





2016

12 Jan
2016

سقى الله تلك الأيام

تكفيوني جولة قصيرة على "طرقات" م الواقع التواصل الاجتماعي، للتدليل على ما يعتمل في صدورنا من شوق وحنين إلى الماضي، والبكاء على أطلاله. فهذا الحكم الهائل من الصور القديمة للعائلة والأحبة والأصدقاء، والمناسبات الخاصة، التي يزدحم بها فضاء النت، ربما لم تكن تعني لنا شيئاً وقت التقاطها أو الاحتفاظ بها بين أوراقنا في الأدراج المقلولة على الماضي بذكرياته وشخوصه ومكوناته. وتلك الأغاني القديمة التي نتبادلها، ونطرب لسماعها، ربما لم تكن نستمع إليها إلا قسراً عبر مذيع الجيران أو أثناء تنقلنا إلى وجهات مختلفة، حيث تحملنا وسائل النقل العامة، أو حتى مجرد استعادة وقائع حادثة ما بشغف كبير وتوّق إلى الماضي، بالرغم من أن تلك الحادثة قد تكون سببـت لنا ألمًا كبيراً وقت حصولها وتركت جراحًا لا تلتئم.

نحاول أن نعود إلى الماضي للهروب من الحاضر، ولن ينجح هذا الأمر إلا إذا قمنا بتجميل بعض من ذاك الماضي الذي يحتمل الذكريات السعيدة والحزينة أيضاً! وهذا ما يدفع بنا إلى التعامل معه بانتقائية تضفي على المشهد شيئاً من الرومانسية والمثالية اللتين لم تكونا في الأصل جزءاً من المشهد، وإنما أضفناهما للشعر بالرضا عن أنفسنا وفاعلاتنا في ذلك الماضي الذي عشناه سابقاً. فنحن عندما نقارن بين الحاضر والماضي، نقوم بذلك بتحيز؛ إذ نستحضر أفضل ما كان في الماضي، ونقارنه بأسوأ ما في الحاضر، فتكون المعادلة محبطـة ومقلقة.

نهرب إلى الماضي عندما نعجز عن تغيير الحاضر، بحثاً عن ملجاً آمن وغير مكلف من ناحية معنوية على وجه الشخص، نصنعه في خيالنا، ثم لا نثبت أن نصدقه. ونبس أنفسنا داخله خشية أن ندفع ضريبة تغيير الحاضر أو حتى التصالح معه. وكلما أمعنا في تجميل الماضي، وفي إضفاء لمسة مفرقة في الرومانسية عليه، قسـونا على أنفسنا أكثر في التعايش مع الحاضر، وأزدادت تعاستنا واستحال علينا تغيير الواقع.

لو نظرنا إلى الماضي بصورة أكثر عمقاً وموضوعية، وقبلناه كما هو، من دون تغيير، لاستطعنا تمييز وتقدير الصورة الحقيقة بدلاً من تلك الزائفة التي أجرينا لها عملية "فوتوشوب". ولو جدنا أن بعض الأشخاص الذين كنا نظن بأنهم أصدقاء مخلصون لنا، وكانوا جزءاً من ماضينا، ليسوا سوى عابرين، طارئين على حياتنا، وبأن سنوات الدراسة الجامعية التي نحن إليها كانت مليئة بالمنغصات، والضغوطات، وضيق ذات اليد، وأن الأفلام والأغاني القديمة لم تكن أفضل، فمنها الجيد ومنها الهابط، إذ إن الحياة هي الحياة بنجاحاتها وإخفاقاتها، وأفراحها وأتراحها، تضـحكـنا حيناً، وتبكيـنا أحياناً أخرى، لكن انتقالـيتـنا في تناولـهاـ هيـ التيـ تـصنـعـ الفـارـقـ.

البشر يملكون المقدرة على إعادة صياغة ماضيهـمـ وجعلـهـ يـبـدوـ أـفـضلـ حالـاًـ أوـ أـسـوـاًـ. وبـإـمـكـانـهـمـ إـضـافـةـ أيـ جـزـئـيةـ يـشـاؤـونـ إـلـيـهـ، كـلـمـاـ شـهـمـ الـحنـينـ، لـتـخـفـيـ الصـورـةـ الـحـقـيقـيـةـ بـالـتـدـريـجـ تـحـتـ طـبـقـاتـ كـثـيـفـةـ مـتـخيـلـةـ لـمـ تـكـنـ جـزـءـاـ مـنـ تـلـكـ الصـورـةـ

19 Jan
2016

السُّنَّةُ كطائفةٌ

ليس في المعنى اللغوي لمصطلح "طائفة" ما يضير؛ فقد وردت الكلمة في القرآن الكريم والسنة المطهرة بمعانٍ محببة، ربما دفعت بالبعض إلى التمسك بالمصطلح والحرص عليه. لكننا نشير هنا إلى الظلل والمعاني السياسية التي اكتسبها هذا المصطلح في العقود الأخيرة. فقد شكلت الحرب الأهلية اللبنانية منعرجاً مهماً في بروز الظاهرة الطائفية، من خلال ما عرف بـ"المارونية الانعزالية"، وحركة "المحروميين" الشيعية، والحزب الاشتراكي الدرزي، بينما نأى المكون السنّي "بنفسه عن هذه الحالة، مما حدا بالبعض إلى القول: إن "السُّنَّةَ ليست بطائفة"

ربما كان السبب في أن السُّنَّةَ لم يتمثلوا الحالة الطائفية، نابعاً من عدم شعور جمهورهم بخوف الأقليات على ثقافتها، ومصالحها السياسية، وحضورها الاجتماعي، ومصالح أفرادها، واحتياجها للإطار الأكبر، وأن تكون فوق المذهب، وأعلى من الطائفة، وحسابات السياسة، وأن تكون جزءاً رئيساً من التيار العام. وقد يكون هذا التفسير الأحادي لعدم "تطييف" السُّنَّةَ فيه مجازفة، إلا أنه لا يبعد أن يكون أحد الأسباب التي أدت إلى عدم تكوّن المظاهر الطائفية للسُّنَّةَ في لبنان في فترة اقتتال الطوائف، أو زعاماتها

أما في الدول الأخرى غير لبنان، فكانت الحال أظهر. إذ بقي السُّنَّةَ - بشكل عام - تياراً عاماً، ومظلة واسعة، تسعى إلى حماية روح "الجماعة" وـ"الأمة"، وتسعى إلى توسيع المظلة العامة، وحماية النظام السياسي والاجتماعي والديني بشكل عام. ولا نغفل أن الجمهوّر السُّنَّي الواسع كانت فيه على الدوام أفكار إقصاء وتهميشه وكفر، وفيه حتى من قصر المصطلح على ما هو أقل من طائفة، ولكن المذهب بشكل عام يبقى المظلة التي تظلل الأمة أو الوطن، أو "أهل القبلة" بحسب السياق. ولذلك، رأينا الكثير من الطروحات الفكرية للمفكرين الإسلاميين السُّنَّة ذات مضمون جمعي غير مصنوع، يهدف إلى النهوض بالأمة بمكوناتها الدينية والمذهبية والثقافية كافة. ونذكر هنا، على سبيل المثال، الشيخ محمد عبد، ومحمد شلتوت والغزالى ومالك بن نبي وغيرهم. هذه الحالة فوق الطائفية، الواثقة، غير المسكونة بوهم الذوبان، وغير المتتشنج لهوية فرعية، هي من أساسيات استمرار الأوطان والأمم بالحدود الدنيا. وهي الدعامة للصمود والرافعة للنهوض. إلا أنه يبدو أنه قد أصابها في السنوات الأخيرة الكثير من التراجع، في ظل حالة الانكفاء والانشطار والتقطي، حتى يبدو وكأن الجسم الضخم في العدد والتنوع لم يعد بالثقة ذاتها، والثبات الممتد عبر تاريخ طويل هو تابع الأمة، فتراجع أو تلاشي الخطاب المذهبى هو الشائع بل المتفred، والخوف من المستقبل هو السائد، فتراجع أو تلاشي الفكر الوجدوى، لصالح الحديث عن مصالح المذهب والفتئ، وأصبح منطق المحاسبة والانغلاق يزاحم منطق التحدي والافتتاح

لا شك أن هناك أدواتاً وظروفاً موضوعية، داخل الأمة وخارجها، أدت إلى هذا التغيير. لكن أيضاً هناك الكثير من التضييم وسوء التدبير والفهم، وبالتالي الاستجابة. إذ ليس ثمة مصلحة في أن يكون هناك أي تحول عن الوسطية والانفتاح والتيار العام؛ هذه حقيقة يجب أن يتأملها كل حريص على أن تسير الأمة بالاتجاه السليم، سواء في مواجهة الظروف الاستثنائية المعيشة أو في السعي للنهوض الحضاري. فلا يمكن لأمة أن تنهض نهوضاً حقيقياً ومستداماً بجزء منها مهماً كبر هذا الجزء، بل النهوض يحتاج إلى شمول واستيعاب لكل المقومات والمكونات، وأهم هذه المكونات هو العنصر الإنساني

26 Jan
2016

منافسة مؤسسات الدولة

تابع الجمهور الأردني باهتمام بالغ، خلال الأسبوع الماضي، الآراء المتعددة التي تمحورت حول التنبؤ بالحالة الجوية تحت تأثير حالة عدم الاستقرار، والتي وصلت حد المساجلات الحادة أحياناً. وتمثلت أطراف هذه المساجلات في دائرة الأرصاد الجوية، وشركة "طقس العرب"، وعدد من المهتمين وأصحاب الخبرة والمعرفة المتفاوتة من جمهور الهواة، وميدانها الإعلام القديم والحديث

لسنا هنا في وارد الحكم على أداء كل طرف من هذه الأطراف، وكل من تابع الحوارات تشكل لديه حكم ما حول ما سمعه وما قرأه، مقارنة بما رأه عياناً خلال الأسبوع الحالي، أو وصل إليه بالوصف والصورة. ولكنني أقصد في ما جرى مثلاً صارخاً للحقيقة أشمل يندمج تحتها هذا الحراك، لأن بعضها في سياقها الأشمل موضوعاً ومساحة. فالقضية ذات طابع عالمي؛ تمثل في ازدياد منافسة الحكومات والأجهزة الرسمية من قبل قطاع الأعمال والمؤسسات المختلفة والجمهور بشكل عام، في الوصول إلى المعلومة وتحليلها، وبالتالي نشرها أو الاستفادة منها

لقد بات امتلاك جهات غير حكومية القدرة على الحصول على كم كبير من البيانات الاقتصادية والديموغرافية والمناخية وغيرها، يشكل تحدياً لأجهزة ومؤسسات متخصصة متعددة في الدولة. وتنامت الجهات -أغلبها شركات ربحية- التي تمتلك القدرة على نمذجة وتحليل البيانات ونشرها، مما شكل منافسة للدور التقليدي للدولة. وربما يعتبر مجال الطقس والتنبؤات الجوية من أظهره، فطالما كان هذا المجال حكراً على الدولة، والآن نجد الجهات الرسمية المتخصصة تحصل على الكثير من البيانات والخرائط الجوية، ونماذج وأنظمة التحليل من شركات عالمية، ومن خلال اشتراكات تدفعها الحكومات لتلك الشركات، شأنها شأن القطاع الخاص. وقبل ذلك رأينا الإعلام ينتقل إلى سيطرة الشركات الكبرى، ورأينا تكيفاً متفاوتاً من الدول مع هذه الهيئة. ثم رأينا الإعلام بعد ذلك يتحول إلى شكل جديد من خلال ثورة الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي، ورأينا الدولة الحديثة تلهث للحصول على دور لها في ظل هذا الإعلام الجديد

هذه الظاهرة التي لا تتوقف عند مجال من المجالات، باتت تلم على الحكومات لإيجاد صيغة للتعامل مع هذه المنافسة المتتصاعدة في ظل الانفجار المعلوماتي، والمنافسة المحدثة. فهل تكتبه جمام منافسيها، أم تسعى إلى تحفيزهم والشراكة معهم والاستفادة منهم؟ هل تغير الحكومات من وظيفتها في بعض المجالات، أم ترفع من مستوى أدائها وتدخل كمنافس للقطاع الخاص في توفير المعلومة وتحليلها ونمذجتها من خلالها؟ ما هي المجالات المعلوماتية التي تدخل ضمن الأمن الوطني؟ وكيف يمكن صيانة الأمن الوطني عند توفر هذه المعلومات لدى جهات لا تسيطر عليها الدولة، وربما لا تملك أدوات للتاثير عليها؟ وما يفاقم هذه المشكلة أن حجم المتغير هنا أكبر بكثير من الثابت، والتغيرات تتعدد وتتكاثر كماً وكيفاً، ولا يمكن إصدار حكم واحد عام على القطاعات المختلفة وعلى الدول المختلفة التي تتفاوت إمكاناتها وتباليئها ورسوخها والتحديات التي تواجهها، ليقوى التحدي الكبير على عاتق أجهزة الدولة بحيث تكون رشيقه مرنّة، ومواكبة للتطورات، وهي مطالب أقرب للأمنيات

لقد أصبح تحدياً ماثلاً لأجهزة الدولة أن تكون هي المصدر المؤتوق والقادر على توفير المعلومة التي تخص كيان الدولة، وسكانها واقتصادها، وما يجري على أرضها، وأن توفر هذه البيانات بالجودة والوقت المتوقعين من المعنيين، وأن تمتلك القدرة على الدفاع عما تقدمه من بيانات، عند ظهور مصادر أخرى للمعلومات منافسة

ولم يعد الأمر مقتضراً على منافسة أو مشاركة الدولة في الحصول على المعلومات المختلفة، بل أصبحت هناك دعوات متزايدة تطالب الحكومات وغيرها بفتح بياناتها للجمهور (Open data)

وتلقى هذه الدعوات رواجاً واسعاً، وتنطلق من فلسفة أن هذه البيانات هي حق للجنس البشري، وبالتالي يجب أن يتم للاستفادة منها. وتحدي البيانات المفتوحة يمثل سؤالاً بات مطروحاً على كل حكومة ودولة، يجب أن تجد له جواباً

تخطي الدول إذا حاولت أن تتعامل مع هذه التحديات بأسلوب التقيد والاحتكار، أو سياسة الإكثار من التراخيص والتصاريح، فهذه سياسات مضى زمانها. نعم، مطلوب تنظيم ما يحتاج إلى تنظيم من النشاط الإنساني، ولكنه تنظيم تحفيز أكثر منه تقيد. ونarendra كوريا الشمالية لا يمكنه أن يعيش إلا في ظروف تشبه ظروف كوريا الشمالية



16 Feb
2016

الإنترنت.. ميدان للحروب الحديثة

خلال الشهر الحالي، طلب الرئيس الأميركي موازنة سنوية قدرها 19 مليارد دولار لحماية شبكة الإنترنت في الولايات المتحدة. وهو مبلغ يزيد على مثيله في موازنة العام الماضي بأكثر من الثلث

هذا الإنفاق الضخم والمتضاعد على أمن وسلامة شبكة الإنترنت يعطي دلالة واضحة على الاهتمام والقلق حيال الأذى الذي يمكن أن تسببه الخروقات التي تنشأ عن الإنترنت. فالمشاريع التي تريد الإدارة الأمريكية تنفيذه من خلال هذه الموازنة، هي لمواجهة جرائم الإنترنت وعمليات القرصنة التي يقوم بها بعض الأفراد، وكذلك ما أصبح يسمى بشكل رسمي وحرفي "حروب الإنترنت" و"أهاب الإنترنت"، وهو ما تقوم أو ما يمكن أن تلحقه الدول والمنظمات المعادية للولايات المتحدة بها من أذى، وخسائر قد تطال البنية التحتية ب مختلف جوانبها؛ مثل الطاقة والاتصالات والنقل والخدمات المالية والتجارية وغيرها

وفي زمن انتشرت فيه الأجهزة الذكية التي تحوي أجهزة تحكم حاسوبية في مختلف المجالات، وأصبحت هذه الأجهزة تتصل مع الشبكات من خلال بروتوكولات معروفة، صارت مخاطر هجمات الإنترنت في تصاعد مستمر، فقد سجلت حوادث دلت على الآخر الذي يمكن أن تحدثه الهجمات الحاسوبية على التي استهدفت المفاعلات، "البني التحتية المختلفة". من أمثلة ذلك الدودة باللغة التعقيد والأذى النووية الإيرانية، وكذلك الهجمات التي نسبت إلى كوريا الشمالية ضد شركة "سوني"، والتي وجه على إثرها أوباما تحذيراً لكوريا الشمالية. وكذلك الهجوم الواسع على أجهزة شركة "آرامكو" السعودية، والذي نسب إلى إيران، وكذلك الأعطال التي حصلت في نظام المواصلات في تركيا

لوقت طويل، ساد اعتقاد أن تأثير هجمات الإنترنت يبقى تأثيراً مؤقتاً. إلا أن دراسات متخصصة في الولايات المتحدة وضعـت احتمالات لتغيرات باللغة وطويلة الأمد على البنية التحتية، يمكن أن تمـسـ دولـةـ فيـ حـجـمـ الـولـاـيـاتـ الـمـتـحـدةـ. ويدور الأن حوار موسـعـ حولـ جـدوـيـ بنـاءـ استـراتـيـجـيـ عـسـكـرـيـ للـرـدعـ فيـ مجـالـ إنـتـرـنـتـ، أـسوـةـ بـماـ حـصـلـ مـعـ الخـطـرـ النـوـوـيـ. عـلـىـ كـلـ الأـحوالـ، فـإـنـ الجـيـوشـ الـحـدـيثـةـ بـاتـتـ تـضـعـ

الـحـربـ الـمـعـلـوـمـاتـيـةـ كـأـحـدـ الـمـجـالـاتـ الـاستـراتـيـجـيـةـ وـمـيـدانـاـ لـلـمـعـارـكـ الـمـسـتـقـبـلـةـ. وـهـيـ تـسـتـعـدـ لـذـلـكـ، وـتـنـفـقـ الـكـثـيرـ عـلـىـ توـظـيفـ الـكـفـاعـاتـ الـفـنـيـةـ الـمـتـخـصـصـةـ فـيـ هـذـاـ المـجـالـ

على الجانب الآخر، تبدو الفجوة التقنية هائلة بين الدول المتقدمة وتلك الأقل تقدماً، لتجد الأخيرة نفسها مكسورةً أمنياً، وربما تضطر إلى طلب الحماية الأمنية لمعلوماتها من لدن الدول والمؤسسات الأجنبية في حالة لا تختلف كثيراً عن طلب الحماية العسكرية، وبما يجعلها مرهونة للأجنبي. وليس من صور الخيال البعيد، أن تخيل مشهداً للمواطن يستيقظ صباحاً ليجد أن الكهرباء والماء في بلاده متوقفة بسبب هجوم معلوماتي؛ فإذا ما حاول استخدام الهاتف أو خدمات الإنترنت ومعدات الإذاعة والتلفزيون، وجدتها "محتبة". وقد يتعدى ذلك إلى نظام المترو والإشارات الضوئية والحسابات البنوكية، وأجهزة التحكم في المصانع والإنتاج... إلخ. قد يحدث ذلك من دون أن تتحرك طائرة أو بarge أو تطلق طلقة. فأنت في ميدان يصعب فيه التنبؤ بالأهداف التي يمكن أن يستهدفها الهجوم المعلوماتي. إذ حينما وجدت الأجهزة الالكترونية، وشكل من أشكال الاتصال، فإن الخطر قائماً. فيمكن لمن يملك القدرة على العيش في أنظمة التحكم الإلكترونية والحواسيب المتعددة الأشكال والاستعمال، أن يحدث أضراراً ليس أقلها تعطيل وظائف هذه الأجهزة

بقي أن أذكر أن الموازنة المطلوبة من قبل الرئيس الأميركي تحظى بدعم في الكونغرس، وهو في الأغلب سيوافق عليها كما وردت

23 Jan
2016

حتى لا تقع الصحافة في الشرك

لم يهدأ هاتفي خلال الأيام القليلة الماضية، للرد عن سؤال تردد على لسان الكثيرين، سواء من المرضى أو الصحفيين، حول مدى صحة الخبر الذي تناقلته بعض وسائل الإعلام بشأن دواء "سحري" تم الإعلان عنه مؤخراً، أدى إلى شفاء ٩٪ من مرضى السرطان ممن كانوا "على شفير الموت"، حسب تعبيرناقل الخبر

أنا لا ألوم المرضى، فـ"صاحب الحاجة أعن" وـ"الغريق يتعلق بقشة"، كما يقال. لكنني أعتبر على الإعلام الذي يروج لمثل هذه الأخبار من دون ثبت أو استقصاء

نعلم أن وسائل الإعلام الكبيرة في الدول المتقدمة تتدبر أطباء ومختصين للتحقق من دقة أي خبر طبي؛ فهي تعى سطوة الكلمة وتأثيرها في الرأي العام، ومع هذا فقد سقط بعضها في شرك الأخبار المغلوطة. فقراءة الدراسات العلمية عملية معقدة، تستعصي في كثير من الأحيان على المختصين، والخطأ في فهم أو ترجمة كلمة واحدة قد يؤدي إلى قلب النتائج رأساً على عقب، إذ إن البون شاسع بين استجابة مؤقتة وتحسن بعض الأعراض، وبين الشفاء التام

هناك الكثير مما يمكن أن يقال عن علاقة شركات أدوية بالمؤسسات البحثية والباحثين، وليس أول على هذه العلاقة المشوهة من شهادة الدكتور "مارسيانجل"، التي ترأست تحرير المجلة الأهم في مدة عشرين عاماً، إذ تحدثت عن حجم التجاوزات وتضارب (New England Journal of Medicine) عالم الطب المصالح في هذه العلاقة. وبالرغم من القوانين الصارمة التي تفرضها الدول والمؤسسات المحترمة لتنظيم العلاقة بين الباحثين وشركات الأدوية والمعدات، إلا أنها ما زالت نسمع بين الفينة والأخرى عن قصص ترقى إلى مستوى الفضيحة أو الجريمة من خلال "زواج المتعة" بين المال المشبوه وبعض المخابرات البحثية، ينتهي عنه حمل كاذب وسراب يحسبه الضلماً ماء

إذا كانت هذه هي حال بعض المجالات العلمية التي تحكمها تقاليد راسخة في التدري والنقد العلمي، فما بالك بالصحافة غير المتخصصة التي تستهدفها هذه الشركات من خلال أذرعها الطويلة، بحيث توجه الخبر الوحدة التي تخدم مصالحها، بهدف حشدرأي عام ضاغط على الحكومات والمؤسسات الطبية من أجل اعتماد بعض الأدوية ذات الكلف المرتفعة، أو لدفع المرضى لبيع الغالي والنفيس للحصول على "طريق الحياة"

عوده إلى الدواء الذي شغل الرأي العام في الأيام القليلة الماضية، فقد حاولت الوصول إلى التأصيل العلمي للخبر من خلال مذكرات البحث العلمية، وسؤال بعض الزملاء المختصين في هذا المجال، لكنني لم أجد ما يشير إلى هذا "الفتن" العلمي العظيم؛ فالحديث عن استجابة جزئية لأعراض نوع واحد من الأورام، ولا يوجد أي ذكر للشفاء

أدعوا وزارة الصحة والجهات الرقابية الأخرى إلى متابعة مثل هذه الأخبار، ومحاسبة كل من ينقل خبراً قد يؤدي إلى الإضرار بالناس واستغلال تعطشهم لأي بارقةأمل تبدد العتمة التي أغرقهم فيها المرض

1 March
2016

هيكل والدرس الأخير

انشغل الفضاء الإعلامي، في الأيام القليلة الماضية، بوفاة الكاتب والصحفى محمد حسنين هيكل، الذى غادر دنيانا بعد مكوث فيها جاوز التسعين عاماً

وفي الوقت الذى اختلف الناس عليه فى صماته، اختلافهم عليه فى حياته، فإننى توقفت إنسانياً عند الدرس الأخير الذى اختاره الرجل، الذى طالما مارس الأستاذية على الآجيال المتعاقبة، وذلك عندما قرر أن يقول لا لمحاولات نقله إلى المستشفى، متذمراً للقرار بأن الحياة تقدر بالنوع لا بالكم، ومخاطباً "الأطباء الذين أرادوا مساعدته": "لا تقفوا بأجهزتكم ومعداتكم في وجه الموت

لقد علمنا في كليات الطب أن مهمتنا الرئيسية تتمحور في إنقاذ المرضى من الموت. وتساحت مستشفياتنا بأخر ما أنتجته التكنولوجيا الحديثة لمساعدة على القيام بذلك. لكن أحداً لم يعلمنا كيف نساعد مريضنا على تقبيل أقدارهم، والمموت بكرامة وبلام، إذا ما حانت ساعة الحقيقة، ولم يبق أمل في الشفاء والعودة إلى الحياة بمفهومها النوعي لا الكمئي. فالزائر لوحدات العناية المركزية في مختلف مستشفيات العالم يجد لها مزدحمة بمرضى لا يرجى شفائهم، يتسبّبون بأنابيب وأسلاك تتصل بالأجهزة التي تحاول تأخير عبورهم المحتمل إلى الضفة الأخرى

فالأطباء يقضون ساعات طويلة في التدرب على عملية إنعاش المرضى في اللحظات الأخيرة لهم، أو ضمان تدفق الهواء إلى الأجسام التي تصارع الموت. لكن لا أحد يفطن إلى تدريسيهم على ضمان سلاسة وانسيابية انتقال المرضى من الحياة إلى المحطة الخامسة في نهاية المطاف، إلا وهي الموت

فالكثير من الأطباء المميزين ممن يتقنون فن العيش، والقتال إلى جانب مرضاهم من أجل أن يحظوا بفترة بقاء أطول في الحياة، تجدهم يقفون مشدوهين لا حول لهم ولا طول أمام سطوة الموت؛ غير مسلحين بالمهارات والأدوات المناسبة التي تمكّنهم من العبور السلس بمرضاهم نحو الأمصار الأخيرة من رحلتهم

حتى منتصف القرن الماضي، كان الناس يتقبلون الموت كما الميلاد؛ كمحطة إجبارية من محطات الحياة. لكن تغيراً نوعياً حصل في الوعي الجماعي للناس، من خلال غرس فكرة إمكانية دحر الموت أو دفعه من خلال التكنولوجيا. فأضحى الناس يستقبلون الموت كما لو كان مفاجأة نادرة الحدوث، ويمكن تلافيها. وأصبحوا غير مهينين لتقبل هذه اللحظة الوجودية، وأصبح الأطباء يرفضون الوقوف مكتوفين الأيدي أمامه، حتى وإن أيقنوا عبئية محاولاتهم

إن إتقان فن العناية بالمريض في مراحل مرضه الأخيرة، لا يقل أهمية عن إتقان فنون وعلوم الطب الأخرى. ويجب أن يكون الجميع مؤهلين لتقبلها، والتعامل معها إذا ما دعت الحاجة لذلك

15 March
2016

أسعار الأدوية إلى أين؟

لم تكن مفاجئة تلك الصرخة التي أطلقها العشرات، عن أبرز المختصين في مجال علاج السرطان في الولايات المتحدة، قبل عدة أشهر، والداعية إلى اتخاذ إجراءات من قبل الحكومة الفيدرالية للحد من الارتفاع الجنوني في أسعار الأدوية المضادة للسرطان. فقد شهد العقد الأخير انفلاتاً شديداً في أسعار هذه الأدوية، بحيث تضاعفت أكثر من عشر مرات منذ العام ... و حتى يومنا هذا. ما دفع بالمرشحين للرئاسة الأمريكية، من الحزبين الجمهوري والديمقراطي، إلى الحديث عن هذا الموضوع، والتعهد باتخاذ بعض الإجراءات الكفيلة بوضع حد لهذا الانفلات في الأسعار.

وفي الوقت الذي يشكل فيه الإنفاق على الأدوية ما نسبته ٥٪ من إجمالي الإنفاق على الرعاية الصحية، فإن أدوية السرطان تستأثر بحوالي نصف فاتورة علاج مرضى السرطان. ومن هنا تتبع خطوة استمرار الوضع الراهن؛ إذ سيحرم السواد الأعظم من المرضى من هذه الأدوية، لعدم قدرتهم أو قدرة موازنات دولهم على الاستمرار في الإنفاق على هذه الأدوية مرتفعة الثمن. وقد أصبح من الأمور الاعتيادية أن تجد دواءً تفوق تكلفته عشرة آلاف دينار شهرياً.

فالشركات تعتمد في الدرجة الأولى عند تسعيرها للأدوية، على قدرة السوق على التحمل، وقدرة المستهلك على الدفع، في توسيع احتكاري غير معلن، يجنبها الدخول في منافسة حقيقة فيما بينها قد تؤدي إلى هبوط الأسعار، وبالتالي تقليل هامش الربح.

وتختبئ شركات الأدوية في سياق دفعها عن أسعارها المرتفعة، خلف أسطورة الكلفة العالية لعمليات البحث والتطوير للأدوية. فهي تقول إن خلف كل دواء يصل السوق عشرات الأدوية التي لا ترى النور، تقوم بتمثيل كل منها على سعر هذه الأدوية، بحيث تدعى هذه الشركات أن كلة أي علاج تصل إلى مليار دولار. وهو رقم مبالغ فيه إلى حد كبير، إذ يقدر الخبراء الكلفة الحقيقة للدواء الواحد بأقل من ١٪ من هذا الرقم. وهذا ما دعا الكثيرين في الولايات المتحدة وغيرها من الدول، إلى المطالبة بقرار قوانين تجبر شركات الأدوية على الإفصاح عن الكلفة الحقيقة للأدوية، متضمنة المصروفات كافة، بما في ذلك ما يدفع للمستشفيات والأطباء بأشكال مختلفة. وهو ما ترفضه هذه الشركات حتى الآن، الأمر الذي يجعل قدرتنا على تقدير الكلفة الحقيقة للأدوية أمراً مستحيلاً في ظل عجزنا عن الدخول إلى الصندوق الأسود لهذه الشركات.

يرى كثيرون في "الأدوية الجنيسة" مخرجاً مناسباً، وحلًا لارتفاع أسعار الأدوية. لكن مفعول هذا الحل في مجال مكافحة السرطان ما يزال محدوداً. فقد وجدت الشركات الكبرى الحلول للالتفاف على قوانين الحماية، من خلال إطالة مدتها بطرق قانونية وأخرى شبه قانونية برعut فيها.

وإذا كانت هذه هي حال الدول المتقدمة والمنتجة لهذه الأدوية، فكيف هي الحال في دولنا التي ترجم ميزانياتها الصحية تحت ثقل العجز المتراكם، والتي قد تصبح قريباً عاجزة عن توفير بعض الأدوية الضرورية؟ لا بد لنا من اعتماد بروتوكولات وأسس تربط اعتماد أي دواء بمدى الفائدة المرجوة منه، ضمن معادلة تربط تسعيرة الدواء واعتماده بمدى النتائج المتصلة، وإلا سنجد أنفسنا عاجزين عن توفير حتى الأدوية الضرورية.

22 March
2016

هل البشرية في خطر؟

هل يمكن وصف ما يشهده العالم حالياً؛ من طغيان للذئنية العنصرية المعادية بشدة لآخر القومي أو المذهب أو العرقي، بأنه صعود شكل جديد من أشكال الفاشية، سواء في السياسة أو الحكم أو في المجتمعات؟

ولا يعني هنا فقط منطقتنا التي تموج بفوضى تغص بالطرف في الاتجاهات كافة، ولكننا نطرح هذا السؤال بشأن الحالة التي يعيشها الغرب الذي أقام كيانه الفلسفى والسياسي والاجتماعي، بعد الحرب العالمية الثانية، على مناهضة كل أشكال العنصرية والفاشية باعتبارها الكفر الذي لا خلاص له مقتوفه ولا توبة لمعتنقه

العديد من أوساط الإعلام الأميركي وصفت المرشح الذي يتقدم السباق عن الحزب الجمهوري، دونالد ترامب، بالفاشية والنازية. وأطلقت عليه إحدى الصحف اسم "الفوهر الجديد"، بعد أن تحدث بعبارات غاية في العنصرية ضد المسلمين بشكل خاص. ولكن ذلك لم يمنع من استمرار اكتساحه للانتخابات المتواصلة، مما يجعل هذا الرجل الأوفر حظاً لمنافسه هيلاري كلينتون أو ساندرس من الحزب الديمقراطي، للوصول إلى البيت الأبيض نهاية هذا العام

فالولايات المتحدة التي قدمت قبل أقل من ثمانين سنوات رئيساً من أصول أفريقية، قد تقدم هذا العام للعالم رئيساً جديداً ينتمي الكثير في أميركا نفسها بالفاشية والعنصرية في أوروبا أيضاً، هناك تقدم واضح لليمين المتطرف، حتى في دول مثل سويسرا والدنمارك وفنلندا. ويتوقع أن يكون لوصول ترامب إلى البيت الأبيض، إن حدث، أثر بالغ في عودة الروح العنصرية لأوروبا؛ هذا إن كانت هذه الروح قد غادرت أصلاً، فهناك قول للمفكر العربي عزمي بشارة بأن: الفكر الفاشي نشأ في جوهر النظام الليبرالي في أوروبا. وهو قول لا يمكن إنكاره. وتكتفي مناصرة الغرب لدولة الاحتلال الإسرائيلي دليلاً على إمكانية القبول الواسع بالواقع العنصري في أمكنةٍ أخرى من العالم

في مقابلة مع المفكر الأميركي نعوم تشومسكي، أجرتها معه صحيفة "المانفستو" الإيطالية مؤخراً، يقول: "إذا كانت تصريحات قادة الحزب الجمهوري المتنافسين على الرئاسة تتوافق مع الواقع البيت الأبيض في المستقبل، فينبغي علينا أن نتوقع كارثة حقيقية". ويضرب أمثلة لذلك بالموقف من ظاهرة الاحتباس الحراري، والاتفاق النووي مع إيران، والجنوح نحو التصرف بعدوانية وشراسة أكبر تجاه بقية العالم، على الرغم من مخاطر إطلاق العنوان لحرب عالمية، مختتماً المقابلة بالقول: "إذا ما قامت دولة بمثل قوة الولايات المتحدة بفرض هذه السياسات الاستراتيجية، ستتضاعل فرص بقاء الجنس البشري على قيد الحياة

صحيح أن هناك بوادر لموجة عاتية من العنصرية، ستجد صدى لها في السياسة، ويبدو أن منطقتنا وقوميتنا العربية وديننا الإسلامي ستكون في عين العاصفة. لكن القطاع الأكبر في العالم ما يزال يرى في التطرف بكل أشكاله، وفي الفاشية خصوصاً، خطراً جارفاً يصعب التحكم به، وأن خطره قد يعم الجنس البشري بأكمله. لكن هذا لا يعفيينا عن حقيقة مفادها أن التطرف والعنصرية يتضاعدان على ظهر كوكبنا بصورة غير مسبوقة، وما لا يتحقق في العام الحالي قد يتحقق في زمن مقبل

29 March
2016

فلنكف عن التلاوم !

يقول الكاتب الإنجليزي الشهير جورج أورويل: "هل من سلام اخترعه البشر يمكن أن يماثل في قسوته بعض الأمراض المعروفة؟!". ويزيد من ألم هذه الأمراض إذا ما اعتقاد الإنسان بمسؤوليته عن إصابته بها

بنالغ أحياناً في حملاتنا التوعوية، بالتزكير بما يجب فعله أو الابتعاد عنه لتجنب مرض السرطان؛ مادا نأكل، وماذا نشرب، كما العادات السيئة التي يجب الابتعاد عنها، والمواد الكيماوية التي نتعامل معها... وهذه النصائح رغم وجاهتها، إلا أنها تعطي الناس انطباعاً أنه بالامتثال لها يمكنهم الإفلات من خطر الإصابة بالسرطان

وهذا ما يدفع بعض المصابين إلى الانكفاء على الذات لوما وتقريعاً، محملين أنفسهم وزراً ما ألقوا بهم! إذ تشير الدراسات إلى أن معظم المرضى يطربون على أنفسهم سؤال: "لماذا أنا؟". وهذا السؤال هو المدخل إلى جلد الذات، واتهامها بالقصير، ولا تقتصر هذه الممارسة على المريض، وإنما تتعداه لتشمل معارفه. وهناك اعتقاد راسخ لدى كثيرين بأن الأشياء السيئة لا تحدث إلا للناس السيئين؛ فإذا ما حصلت للطبيعين، وأي منهم تعرض لها، فإنهما يبحثون تلقائياً عن سبب أو فعل قد يكون مارسه هذا الشخص جعله يصاب بالمرض

من الأهمية بمكان أن يحاول الإنسان اتباع أسلوب حياة صحي ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. لكن يجب أن لا يغيب عن باله أن أسلوب حياته مهما اقترب من درجة الكمال، لن يشكل ضمانة لعدم إصابته بالمرض. فرغم التطور الهائل الذي بلغه الطب، ما تزال نسبة كبيرة من الأمراض، بما فيها السرطان، تحدث من دون سبب معروف للإنسان. وحتى تلك الأنواع من السرطان التي يمكن تجنب حدوثها إلى حد كبير بتغيير نمط حياتنا، مثل سرطان الرئة، لا يمكن حصر مسبباتها في هذه العوامل فقط، وإنما هي نتاج تفاعل عدد من العوامل مجتمعة

قد تعني الكثير للعلماء والمختصين النسب المئوية والأرقام المستقة من الدراسات. لكنها لا تعني كثيراً للشخص تم تشخيصه بالإصابة بالسرطان؛ فاحتمالية الإصابة بالنسبة له..!، ولن تعنيه كثيراً بقيمة الأرقام

وحيّي بنا نحن الأطباء الابتعاد عن توجيه النصائح لمريضنا بأثر رجعي؛ إذ لن تؤدي هذه النصائح إلا إلى مزيد من الشعور بالذنب، بما يضيف عليناً وألمًا نفسياً لن يكون أخف وطأة من الآلام الحسدية التي يعني منها هؤلاء المرضى. كما يجب أن تصاغ رسائلنا الصديقة بطريقة مفهومة، بحيث توجه بشكل واضح؛ وهو أن ما نقوم به من احتياطات يهدف إلى التقليل من احتمالية الإصابة، وليس منع حدوثها

أنا أؤمن بشدة بأهمية الكلمة والمعلومة كوسيلة مهمّة لتنقيف الناس، وأحياناً تغيرهم. لكن إلى أي مدى يمكن أن تؤدي هذه المعلومات إلى وصم المصابين بمرض ما، وربما الحد من تعاطف الناس معهم، وذلك باتهامهم بالتسبب بالضرر لأنفسهم؟

5 April
2016

نهاية الدكتور فرانكشتاين

ضدمنت الأوساط الطبية بنتائج التحقيق الذي أجرته اللجنة المشكلة من قبل "معهد كارولينسكا" السويدي الشهير، والتي خلصت إلى توجيهه أصابع الاتهام للطبيب الشهير ذي الأصول الإيطالية باولو ماكيارياني، بإساعة استخدامه للبحث العلمي، وإخفاء حقائق مهمة عن حجم الضرر الذي تحدثه أبحاثه على المرضى

فالدكتور ماكيارياني يعتبر أحد أهم خبراء ما يسمى طب التجديد، وهو أول من قام بزراعة قصبة هوائية مصنوعة من البلاستيك والخلايا الجذعية. وقد نال شهرة عالمية واسعة عندما أجرى هذه العملية، ليتحول إلى "سوبر ستار" تخاطفه المراكز الطبية الشهيرة. كما أصبح ضيفاً مرحباً به في المؤتمرات الطبية المتخصصة. وقد بلغ به الغرور أن يقول: "نريد أن نخلق أعضاء جديدة تماماً كما فعل فرانكشتاين"

لكن الشكوك سرعان ما بدأت تلقي بظلالها عليه، وعلى مدى مصداقية أبحاثه، ما دفعه إلى الانتقال لمدينة كراسنادار الروسية، حيث القوانيين الطبية والبحثية أقل صرامة. وهناك تابع إجراء عملياته، أو بالأحرى "تجاربه" على المرضى. ليتبين فيما بعد وفاة ستة مرضى من أصل ثمانية خضعوا لهذه التجربة، ثم ليكتشف أن تجاربه لم تمر بمراحل التجربة على الحيوان

إن الأبحاث الطبية تحمل بين طياتها الكثير من المخاطر، واحتمالية حصول الضرر للإنسان. ومن هنا تأتي ضرورة وضع ضوابط قانونية وأخلاقية لضمان إجرائها في بيئة من الشفافية والمصداقية. ولا يجوز ترك الأمر للواعز الأخلاقي للباحث أو الطبيب. لذا، لا يجوز إجراء تجارب طبية على الإنسان لأغراض العلام أو البحث العلمي التجريبي، إلا بعد الرضا المستنير والمتبصر للشخص موضع البحث.

لم تكن حادثة الدكتور ماكيارياني أول حالة إساءة للأمانة العلمية، ولن تكون الأخيرة؛ فقد سبقتها العديد من الحوادث، لعل من أبرزها التجارب النازية على أسرى الحرب أيام الحرب العالمية الثانية، والتجارب الأمريكية على المرضى من أصول أفريقيية مصابين بمرض السفلس، وحرمان بعضهم من العلام الناجع، "البنسلين!". بالرغم من اكتشافه في ذلك الوقت. وذلك ما حدا بالعالم إلى اعتماد ما سمي بمبادئ "نورمبرغ"، التي أسست للمبادئ الرئيسية التي يفترض أن تضبط أخلاقيات التجارب الطبية. وتبعها "إعلان هلسنكي" الذي يعتبر الوثيقة الأهم فيما يختص بأخلاقيات الأبحاث

إذا كان هذا يحدث في دول ومؤسسات تتمتع بقدر كبير من التقاليد البحثية العريقة، وتensus لقوانيين صارمة تضبط الممارسات البحثية، بما بالك بدول العالم الآخر؛ حيث موضوع حقوق الإنسان برقته يعتبر ترفًا، ولم يأخذ وضعه الطبيعي على أجندة لها كأولوية؟
لابد لنا، دول ومؤسسات، من تأسيس حوكمة رشيدة تضمن نزاهة البحث العلمي، وتضبط مراحل البحث وممارسات الباحثين كافة، بما يشكل ضمانة حقيقة لحماية حقوق المرضى والأفراد، بأن يردع كل من تسول له نفسه اللالعب بصحة وأرواح البشر

13 April
2016

مجتمع الكراهية الافتراضي

مقولة شهيرة لا ينفك يكررها مارك زوكربيرغ، مؤسس موقع التواصل الاجتماعي الأكثر شهرة "فيسبوك": إن الشبكة تقوم بجمع الناس معاً في محاولة لجعل العالم مكاناً أفضل، لكنها بالتأكيد ليست المدينة الفاضلة

يُصدِّم كل متبع لوسائل التواصل الاجتماعي على الشبكة العنكبوتية من الحكم الهائل لخطاب الكراهية الذي تموّج به، بحيث أصبح هذا الخطاب يشكّل الصفة الغالبة والسمة البارزة؛ فلاتكاد تجد حواراً هادئاً حول أي قضية مطروحة، سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أو حتى رياضية، إذ الكل يتمترس خلف قناعاته المسبقة مستخدماً كل ما تسعفه به مفاتيح "الكيبورد" تحت أصابعه من ذخيرة ليقصّف بها خصوصه أو من يخالفه في الرأي، مما يجعلك ممتناً أن الأسلحة الحقيقية لم تصل بعد إلى العالم الافتراضي، وإلا تضاءلت أعداد ضحايا الدروب الحقيقة أمام ضحايا هذا العالم الذي ندعوه افتراضياً

تحاول الدول والمؤسسات جاهدة العمل على الحد من خطاب الكراهية على شبكة الإنترنت. لكن هذه الجهدود تصطدم بإشكالية ثنائية حرية التعبير وإساعة استخدام هذه الحرية، وكيفية رسم الحدود الفاصلة بينهما، ومن هي الجهة المخولة للقيام بهذا الدور. وتوظف الشركات المالكة لمواقع التواصل المئات من الخبراء لتتبع ومحاولة الحد من خطاب الكراهية، مسلحين بالتقنيولوجيا بما يشهي الشرطة في عالمنا الحقيقي. لكن المعضلة الكبرى التي يواجهونها تكمن في غياب تعريف متفق عليه لهذا الخطاب، وفي الحكم الهائل من الشكاوى التي تصلهم؛ إذ يتلقى هذا القسم في "فيسبوك" أكثر من مليوني شكوى أسبوعياً، بما يجعل عملية متابعة هذه الشكاوى وأدتها في مدها محدودة الفاعلية

وتقع هذه الشركات في معضلة اعتماد التعريف الغربي لهذا المصطلح، وهو تعريف تشوبه أحادية النظرة والتحيز للقيم والمصالح الغربية، مما يوقعها (الشركات) في محظوظ ازدواجية المعايير، الذي يفقدها المصداقية والتقبل بين أتباع الثقافات الأخرى

وتزداد هذه الظاهرة خطورة في هذا الوقت الذي تتزايد فيه أعداد الناس الذين يعتمدون على وسائل التواصل الاجتماعي كمصدر وحيد للمعلومة، وبالتالي تشكيل قناعاتهم تجاه مختلف القضايا. فعدد الذين يستقون ثقافتهم من أي من وسائل التواصل المشهورة، يفوق عدد الذين يعتمدون الصحف المشهورة والكتب في بناء ثقافتهم و موقفهم، وقدرة موقع مثل "فيسبوك" في تحديد من يحق له الكلام ومن يصمت، تفوق قدرة كل الأنظمة الحاكمة، بمحاكمها وشرطتها وأجهزتها الرقابية

الحلول المطروحة حتى اللحظة هي إما تقنية بحتة، أو قانونية. وهي حلول تبقى قاصرة عن معالجة لب المشكلة والأسباب التي تحول مجتمعات بأسرها إلى مجتمعات كراهية، تجد في الفضاء الافتراضي مسرحاً جديداً لعملياتها القتالية

19 April
2016

هل هناك مريض صعب؟

دراسة لافقة تعثرت بها مؤخراً، صادرة عن مركز "إيراسموس" الطبي في روتردام، تقول: إن احتمالية الخطأ في تشخيص المريض صاحب الطابع الصعب، أعلى بنسبة ملحوظة من تلك الاحتمالية عند المرضى العاديين

وتؤكد هذه الدراسة شعوراً عاماً بين الأطباء، مفاده أن الأمور عادةً ما تتغير مع المرضى "النكدين". إذ حاولت الدراسة المقارنة بين دقة تشخيص الأطباء للمرضى العنيفين أو أولئك الذين يبدون عدم الثقة بأطبائهم وغير الملتزمين بتعليمات الطبيب، مع دقة التشخيص في حالة المرضى العاديين "المحايدين". وتبين أن الخطأ عند الفتاة الأولى أعلى بنسبة قد تصل إلى ٤٪، رغم أن الأطباء يقضون الوقت نفسه مع كلتا الشريحتين

وكان لافتاً أنه عندما تم سؤال الأطباء لاحقاً عما يتذكرون من السيرة المرضية والأعراض السريرية لكليتا الشريحتين، أن طفت على السطح الصفات التي تعكس شخصية الشريحة الأولى الصعبة والعنيفة، وحلت مكان الأعراض الحقيقية لأمراضهم، مما يدل على أن هذه الصفات قد استأثرت باهتمام الأطباء على حساب الأعراض الحقيقية للمريض وأدت إلى استنزاف ذاكرتهم. وهو ما يفسر ارتفاع نسبة الخطأ في التشخيص

وهذا الاستنتاج تؤيده مشاهداتنا اليومية. إذ كثيراً ما تسأل أحد الزملاء عن مريض ما، فيكون جوابه الأول والسرير: "مريض صعب" أو "نكد" أو "عنيف". وما ينطبق على المريض في الغرب ينسحب، بصورة أكثر انتشاراً ووضوحاً، على أهل المريض في بلادنا هذا وتشير دراسة أخرى إلى أن الأطباء الأكثر خبرة يمتلكون قدرة أكبر على استيعاب وتحييد هذا النوع من المرضى؛ بينما يكون الأطباء الشباب حساسين جداً تجاه ما يخಡش كرامتهم أو يتعدى على عملهم

فالطبيب قبل كل شيء إنسان وليس آلة، ولا يمكنه بحال من الأحوال التخلص من صفاته البشرية وعواطفه وانفعالاته عند دخوله مكتبه أو عيادته، والثقة والاحترام المتبادلين أساس العلاقة الصديقة بين الطبيب ومريضه، ومن دونهما ستتأثر العملية العلاجية برمتها

هناك الكثير من الوسائل التي قد تساعد الطبيب على الحد من تأثيره بتصرفات بعض المرضى "أهلهم، منها التدريب على احتواء المرضى "الصعبين". ومنها استخدام "قائمة تفقد" (Check List) تساعد في التركيز على المفید في حالة المريض. ولكنها تبقى وسائل قاصرة مالها يصل المريض إلى قناعة بأن الطبيب المستشفى في صفه وإلى جانبه في مواجهة عدو مشترك، هو المرض

بقي أن ذكر هنا أن القيمة المضافة لأي صاحب رسالة أو مهنة، تكمن في مقدرتها على التعامل مع التحديات الصعبة، وإنما كان هناك تمايز بين الناس

11 May
2016

ومن الطب ما قتل

كم كانت صادمة لمعظم الناس، النتيجة التي خلص إليها البحث الذي نشرته، الأسبوع الماضي، "المجلة الطبية البريطانية" ذاتعة الصيت. إذ خلص إلى أن الأخطاء الطبية مسؤولة عن ٢٥٪ من حالات وفاة سنويًا في الولايات المتحدة؛ محظلة الترتيب الثالث على سلم مسببات الوفاة، ومتاخرة فقط عن أمراض القلب والسرطان.

وتشمل هذه الأخطاء مضاعفات العمليات الجراحية، والأخطاء في وصف وإعطاء الأدوية وجرعاتها، والخطأ في التشخيص. ما دداب البعض إلى المطالبة بالاعتراف بالأخطاء الطبية كمرض يتم إدراجه ضمن قائمة الأمراض المتنسبية بالوفاة.

تري، ما الذي يحول أهالكين يلجأ الناس إليها طلباً للاستشفاء، إلى "أماكن قتل" مرخصة؟ وما الذي يحول أشخاصاً يأتمنهم الناس على أعلى ما يملكون، إلى "قتلة مفترضين" ولو بالخطأ؟! وهل بالإمكان تلافي هذه الأخطاء أو التقليل من نسبة حدوثها؟

قطعاً، لا يوجد طبيب يتقصد إلحاق الضرر بمريضه؛ إذاً ما استثنينا تلك الحالات الفردية لأطباء ارتكبوا أفعالاً جرمية. فالطبيب ينطلق في عمله من القاعدة المشهورة "لا ضرر ولا ضرار". فما الذي يجعل هذه الأخطاء الطبية على هذه الدرجة من الخطورة والانتشار

توصف العمليات العلاجية بأنها شديدة التعقيد، وذلك لخصوصية تعاملها مع النفس البشرية، ولتنوع وتشعب المراحل التي تمر فيها، كما الضغط النفسي الذي يطغى على الجو العام الذي يغلف هذه العمليات، ما يجعل العملية برمتها قابلة للخطأ في حال حدوث خلل ما في أي من مفاصلها الأساسية. فالعمليات الطبية يحكمها نظام معقد ومتراصط، يفترض به أن يضمن سلامتها وسلامتها. لكن هذا النظام قد يتضمن في بنيته تشوهات تسمم بحدوث الأخطاء الطبية، وتشكل القدرة على تفاديهما

لقد أشبع موضوع الأخطاء الطبية بحثاً، للوصول إلى أصل العلة. وأفضل ما وصل إليه خبراء سلامة العمليات هو أن معظم أسباب هذه الأخطاء تندمج تحت أخطاء بنوية تصيب لب النظام، وليس مجرد أخطاء فردية، مع عدم إغفال أهمية العامل البشري. فالأسهل لنا عند تعاملنا مع خطأ طبي ما أن نبحث عن كبس فداء نقدمه قرباناً نشعّب من خلاله غريزة الانتقام لدينا، كافين أنفسنا مؤونة البحث عن موطن العلة الحقيقي لمنع تكرارها. وبذلك تكون كمن يعالج العرض دون المرض المسئّب له (Check List)

البشر يخطئون، ولن يتوقفوا عن ارتكاب الخطأ. لذا، يترتب علينا إعادة تشكيل الأنظمة الطبية بحيث تلتقط هذه الأخطاء وتعالجها قبل وصولها إلى المريض. فالأخطاء الطبية، كما الأمراض، تنجم عن أسباب متعددة ومتشعبية ومتراكبة. ومن السذاجة بمكان ردها إلى عامل واحد، وغض النظر عن الخلل في الآلية التي سمحت لهذا الخطأ بأن يمر

كما أن العلاج السليم يبدأ بالاعتراف بالمرض، فإن حل هذه المعضلة يبدأ بالاعتراف بها، ومعرفة حجمها الحقيقي من دون تهويل ولا تقليل

17 May
2016

سر اللاعب رقم ٢

لم يكن فوز المنتخب الألماني بكأس العالم الأخيرة مفاجئًا؛ فالألمان مرشدون دائمون للفوز بالبطولات الكروية، جنباً إلى جنب مع عدد من عمالقة هذه اللعبة. لكن الجديد في فوزهم، كان اعتمادهم على "Big Data" تحليل المعلومة لأداء فريقهم، كما للمنافسين، من خلال جمعهم لبيانات الضخمة وتحليلها للبناء عليها في إعداد الفريق، ولتكون هذه البيانات هي اللاعب الثاني عشر في الفريق، والذي يؤكد كثيرون دوره البارز في الفوز بالبطولة.

إذ على مدار سنتين، قام خمسون طالباً من كلية التربية الرياضية في جامعة كولون بتحليل كل حركات وسكنات لاعبي الخصم؛ نقاط القوة والضعف لديهم؛ سرعتهم؛ المساحات التي يشغلونها؛ نسبة التسديد على المرمى؛ مراوغاتهم... وغيرها الكثير من سمات أدائهم على أرض الملعب، من خلال تحليل الألمانية لتحليل هذه البيانات "SAP" ملابس الصور والفيديوهات. وتم التعاقد مع عملاق البرمجيات شركة عن أداء اللاعبين، وذلك لتمكن الجهاز الفني للفريق من العمل على تحديد نقاط القوة للمنافسين، واستغلال نقاط ضعفهم.

لم تكون كرة القدم اللعبة الوحيدة التي تُستخدم فيها التكنولوجيا لتحليل المعلومات لصالح الفريق، فقد طبقت هذه التكنولوجيا في رياضات أخرى، مثل التنس وكورة السلة وغيرهما.

ولا شك أن أي كمبيوتر أو برمجية لن تتمكن فريقاً من غير الموهوبين من الفوز. ويجب أن يسبق التكنولوجيا إعداد بدئي ونفسي جيد، مبني على أساس علمية.

إن فهمنا لفكرة لعبة القدم قد تغير؛ فلم تعد تلك اللعبة الرومانسية مجرد لعبة يمارسها الفقراء، وأبناء الحي في الأزقة للتسلية! بل دخل العلم إلى مناديها كافة، وأصبحت الدول توظف جيوشاً من العلماء في جميع المجالات من أجل إعداد الفرق ولاعبيها بشكل ممتاز.

غنى عن القول إن عصرنا هو عصر المعلومة، ومن يملك المعلومة ويتحكم بها يملك القوة. لذلك، نجد الدول الكبرى وأجهزتها الاستخبارية، تنفق مليارات الدولارات من أجل امتلاك المعلومة في عالم يضُم من المعرفة يومياً أضعاف ما كان يفعله في سنوات! ويقوى التحدي في القدرة على تحليل هذه المعلومات والبيانات، وتحويها إلى معرفة، وتطويعها لخدمة البشرية.

فانتشار الأجهزة الذكية، وأجهزة الكمبيوتر المحمولة، يؤمن قناة هائلة من البيانات حول سلوك وأنماط حياة البشر، مما يدعوه بالبيانات الضخمة. وتُستخدم هذه البيانات في مختلف مجالات النشاط البشري

ففي مجال الصحة مثلاً، تتيح هذه البيانات رؤية مستمرة، وغير مسبوقة، وشاملة لطبيعة حياتنا وسلوكنا الفردي؛ أين نسكن، وأين نعمل، وما هو مستوى نشاطنا، وعادات السفر، وماذا نأكل ونشرب، ومن هم الناس الذين نتفاعل معهم! ويمكن ربط هذه البيانات المستقاة من المعلومات العامة، مع السجلات الصحية، والبيانات السكانية، والمعلومات الجينية، بحيث تتيح لنا فرصاً جديدة لاكتشاف النماذج الصحية للبشر، والقدرة على التنبؤ بالتحديات الصحية على المدى الطويل، تاهيك عن تخفيض كلفة الرعاية الصحية.

كما يمكن الاستفادة من هذه البيانات في مقاومة الأمراض المعدية، والحد من انتشارها، والتقليل من انتشار الأمراض غير المعدية، بربطها بأنماط معينة من الحياة والسلوك البشري.

لأنه يعلم ما إذا كانت ألمانيا ستفوز بكأس العالم من دون اعتماد هذه التكنولوجيا الحديثة! لكن الثابت أن المعلومة أصبحت حجر الزاوية الذي تبني عليه النشاطات البشرية كافة.

31 May
2016

كيف نقرأ "السعودية .٣. ٢٠١٦" أردنياً

قبل أسابيع قليلة، أُعلن ولـي ولـي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان، ما سمي "رؤية ٢٠٣٠ للمملكة العربية السعودية"، والتي أشتملت على جوانب اقتصادية واجتماعية وثقافية متعددة، وذات أبعاد استراتيجية يفترض أن تقود حركة تحول اقتصادي واجتماعي في المملكة لعقد ونصف العقد من الزمن. السعودية في صدارة الدول العربية، ودول العالم، من حيث الارتباطات الاقتصادية والدينية والسياسية والاجتماعية مع الأردن. فالتبادل التجاري مع السعودية هو الأعلى في الميزان التجاري الأردني، والمعاملة الأردنية الماهره هي الأعلى في السعودية منها في أي بلد آخر، كما أن السياحة الدينية، والعلاجية، والتوفيقية بين البلدين متعدة. ولا تحتاج الروابط الاجتماعية والدينية بين الشعبين إلى شرح وبيان. كل هذا يجعل من الاهتمام بما يحدث في السعودية أمراً طبيعياً، ويجعل من دراسة الفرص والتحديات التي يمكن أن تنبثق عن هذه "رؤية ٢٠٣٠" مسألة حيوية بالنسبة لنا هنا في الأردن

من الأمور الواضحة في وثيقة الرؤية –والتي لا تخفي فيها مفردات الطموح وعبارات الحماس– أنك أمام مشروع ضخم يمتلك الكثير من المقومات لكي يوضع موضع التنفيذ. فبالإضافة إلى حصولها على موافقة سريعة من مجلس الوزراء السعودي في الخامس والعشرين من نيسان (أبريل) الماضي، فإن وجود الأمير محمد بن سلمان على رأس مجلس الشؤون الاقتصادية والتنمية واسع النفوذ، يوفر ما يكفي من الدعم المادي، وسلطة القرار للسير في تنفيذ هذه الرؤية. وهذا ما ظهر واضحاً في نص الوثيقة ذاتها؛ فهي تتحدث عن كثير من المشاريع المحددة، وبعضاً منها أصبح قيد التنفيذ حتى قبل أن تنشر الوثيقة للرأي العام. فنحن أمام برامج ومشاريع ومؤشرات قياس واستحقاقات بتواريخ محددة، وأرقام اقتصادية هائلة تقدمها وثيقة الرؤية، ما يشير إلى أن هناك قوة دافعة متمكنة خلفها. وكل هذا يدفع إلى إعطاء هذه الرؤية ما تستحقه من الدراسة من قبل مؤسساتنا الاقتصادية الرسمية والأهلية، ومن قفينا وعموم مجتمعنا

ويبدو أن المملكة الجارة لا تزعزع من قيام الرأي العام الداخلي والخارجي بمناقشة هذه الرؤية. وإن إن الرؤية نصت على السعي "إلى الدخول في شراكات طويلة الأمد مع الدول الشقيقة والصديقة من أجل التبادل التجاري ونقل المعرفة"، فإن تقييم العلاقة الاقتصادية مع دول الخليج، والسعودية بشكل خاص –خارج إطار المساعدات– من الأمور الضرورية لاستثمار الإمكانيات والثروات الهائلة التي تجاوزت حدود بلدنا إلى المحيط القريب. فإدراك الأولويات التنموية لهذا المحيط، والسيكولوجيا المحركة للقرار الاقتصادي والاجتماعي يمكن أن يتم –أردنياً– فوائد تتجاوز مجرد توريد العقول والأيدي الماهرة الضرورية لتنفيذ مشاريع التنمية إلى صيغ أكثر جدوى وديمومة، مثل الدخول في شراكات إقليمية، وتأسيس صناعات وأعمال تتوافق مع الاحتياجات الإقليمية

ومن الجدير بالذكر هنا أن الرؤية تحدثت عن قطاعات اقتصادية يمكن أن يقدم الأردن فيها إسهامات مهمة، من مثل الطاقة المتعددة، وتكنولوجيا المعلومات، والاتصالات والخدمات الصحية والمالية. ثم هناك جوانب ثقافية واجتماعية قدمنها الرؤية. تحتاج إلى بحث لمدى تأثيرها في المجتمع السعودي والفكر الديني

7 June
2015

ترامب يغير قواعد اللعبة

لم يكن ليخطر ببال الذين حضروا حفل إشهار الترشح، بمن فيهم المرشح نفسه، أنه سيكون المرشح الوحيد للحزب الجمهوري بعد عشرة أشهر، وعلى مرسي حجر من البيت الأبيض

يعلن ، "ففي حزيران (يونيو) ٢٠١٥، وقف دونالد ترامب في صالة برجه الأشهر في نيويورك ترشحه لتمثيل الجمهوريين في الانتخابات الرئاسية المقبلة. لكن كثيرين لم يأخذوا إعلانه للترشح على محمل الجد؛ فرجل الإنشاءات والعقارات الشهير لم يعرف بميوله السياسية، ولم يترشح لمنصب سياسي في حياته، إنما عرف ببناء الأبراج، وامتلاك الكازينوهات، وإدارة مسابقات ملكات "الجمال، وأخيراً اشتهر ب برنامجه ذات الصيت "The Apprentice"

منذ ذلك اليوم، بدأت حملة انتخابية غير تقليدية، وغير مسبوقة. ففي الوقت الذي بدأ منافسوه استعداداتهم الانتخابية مبكراً؛ وذلك بتحضير جداول الناخبين، وحجز خبراء الانتخابات وأساطين العلاقات العامة، والأهم من ذلك أسماء الآثرياء من المانحين المحتملين، وجداول للمتحمسين من صغار المتربيين، لم يتلفت ترامب لكل هذا، وقرر أن يمول حملته ذاتياً من ثروته الطائلة، وحتى هذه لم يكن في وارده أن ينفق منها الكثير

مفاوضات الحملات الانتخابية عادة ما تذهب للدعائية الانتخابية، من خلال دقائق قليلة في المحطات الكبرى أو المحلية، أو مسادات صغيرة في الصحف تكشف الملايين، أو لافتات على جوانب الطرق تجعل اسم المرشح مألوفاً. وعادة ما تحسب فرص المرشح بالنجم بمقدار ما يحتويه حسابه الانتخابي "من سيولة؛ فإذا ما نفذ الحساب، خرج المرشح بالعبارة الشهيرة: "قررت تعليق حملتي الانتخابية

أما دونالد ترامب، فقد كانت له خطة مختلفة تماماً؛ وذلك باستغلال الإعلام في الدعاية له بالمجان. إذ يعمد إلى إطلاق تصريحات مستفزة، وغالباً ما تكون صادمة، عبر حسابه على "تويتر" ومن خلال لقاءات صحفية أو متلفزة، أو من خلال مهرجاناته الانتخابية، فتسارع المحطات الإعلامية لتناولها والحديث عنها، ومناقشتها مع الخبراء، ليجد بقية المرشحين المتعطشين لأي ظهور إعلامي أنفسهم منغمسين في التعليق على هذه التصريحات، بدلاً من الحديث عن مشاريع أنفقوها عليها وقتاً ومالاً لعرضها على الجمهور الذي تستهويه العبارات الصادمة، أكثر من البرامج النظرية المكرورة والمملة، ولويذهب ترامب بعدها إلى أحد منتجعاته أو أبراجه تاركاً الساحة لكل من يريد أن يدللي بدلوه، ولسان حاله يقول

أنام ملء جفوني عن شواردها
ويشهد الخلق جراها ويختصموا

فعلى مدار عشرة أشهر، كان ترامب يدللي بتصريحات المسيطرة التي طالت مجتمعات عرقية كالكمبيونيين، الذين وصفهم بالإجرام والاغتصاب؛ ومجموعات دينية كال المسلمين، متهمًا إياهم بالإرهاب، وداعياً إلى منعهم من دخول البلاد؛ وتصريحات تسيء للنساء. وحتى بعض الأشخاص الذين يعتبرون أبطالاً في أدبيات حزبه، مثل جورج بوش وجون مكين، لم يسلموا من لسانه السلطاني

واستمر الإعلام بهؤسه بتبع كل ما يصدر عن ترامب من تصريحات وموافق. واستمر تساقط مرشحي الحزب الجمهوري واحداً تلو الآخر، ليخلو له الميدان في النهاية مرشاً واحداً للحزب، يعد العدة لمعركته الأخيرة أيام مرشحة الديمقراطيين المحتملة، هيلاري كلينتون

قد يستمر تراثه في السياسة نفسها، أو يغيرها في الشوط الأخير من السباق الرئاسي. وقد تصل به سياسته هذه إلى المكتب البيضاوي، أو تقف به عند هذا الحد، كما وقف مرشد وحزبه في آخر دورتين انتخابيتين. لكن طريقة في التعامل مع الإعلام، والتي كانت أحد الأسباب في وصوله إلى تمثيل الحزب الجمهوري في الانتخابات الرئاسية، ستبقى علامة فارقة في تاريخ انتخابات الأميركيّة، وسيذكرها السياسيون والإعلاميون لأجيال قادمة، وقد تدرس في كليات الإعلام والسياسة

14 June
2016

فوضى المضادات الحيوية

تناقلت وسائل الإعلام المختلفة، مؤخراً، خبر اكتشاف أول حالة بكتيريا مقاومة لعلاج "الفرصة الأخيرة" في الولايات المتحدة؛ وهو أحد أنواع المضادات الحيوية التي يلجأ إليها الأطباء في حال فشل المضادات الأخرى في التعامل مع البكتيريا. وهو ما ينذر بظهور بكتيريا مقاومة للأدوية على نطاق واسع

شكل اكتشاف عقار البنسلين منعطفاً مهماً في تاريخ الطب، بل والبشرية قاطبة؛ عندما ساهم هذا العقار المضاد للبكتيريا، خلال العقود السبعة التي تلت اكتشافه، في إنقاذ حياة ملايين البشر. لكن إساءة استخدام البشر لهذا العقار ومتلاطمه من مضادات الميكروبات، أدت إلى تكون العشرات من الميكروبات المقاومة لمعظم أنواع المضادات الحيوية، ما يؤدي إلى وفاة مئات الآلاف من المرضى سنوياً

إذ أدى الاستخدام الجائر وغير العقلاني للمضادات الحيوية إلى تشكيل أنواع من البكتيريا المقاومة لها؛ ذلك أن أنواع البكتيريا كافة تمتلك القابلية لأن تصيب مقاومة للمضادات الحيوية. يحدث ذلك عندما تنشأ طفرة جينية لدى البكتيريا، تمنحها القدرة على البقاء والتكاثر بوجود مضاد حيوي معين. ويفاقم المشكلة أن طبيعة هذه البكتيريا تتمتع بالقدرة على تبادل المادة الجينية فيما بينها بصورة عشوائية

وهذه المقاومة للمضادات الحيوية لا تعرف بالحدود الجغرافية، ولا تميز بلدًا متخلطاً عن آخر متظور! وإن كانت نسبة المقاومة لدى أنواع معينة أعلى في الدول النامية، إلا أن الحركة النشطة للسكان بين الدول تسهم في نقل المقاومة من بلد إلى آخر؛ فليس هناك بلد بمنأى عن هذا الخطر الذي يعد تهديداً عابراً للحدود

لقد واكت شركات الأدوية والمختبرات العلمية هذا الخطر، من خلال إدخال مضادات حيوية جديدة. لكن هذه الاستراتيجية التي بدأها في بدايتها، أصبحت قاصرة عن الواقع بسرعة تكون المقاومة؛ إذ انخفض عدد المضادات الحيوية الجديدة بصورة ملحوظة في السنوات الماضية

تبعد البكتيريا المقصورة الشهيره "الضرير التي لا تقتلها تقويك"؛ ففي كل مرة نستخدم فيها مضاداً حيوياً بصورة غير صحيحة، يتتسارع تطور مقاومة صده. ويقف وراء الاستعمال الجائر لمضادات البكتيريا، قصر النظر، وتجاهل الآثار البعيدة لهذا السلوك؛ فالإنسان غالباً ما يتجاهل تبعات الأمور التي لا يخبرها آلياً. ومن هذه السلوكيات تناول المضادات الحيوية لعلاج أمراض لا تستوجب العلاج، وعدم إكمال جرعات العلاج حال تحسن الأعراض، وانتشار الاستطباب الذاتي، وبيع المضادات من دون وصفات طبية والتي تشكل حوالي ٥٪ من إجمالي المبيعات. وهناك أيضاً انتعمال هذه المضادات ضمن علاج الماشية، ناهيك عن الأدوية المزورة؛ إذ تشير الدراسات إلى أن ٥٪ من المضادات الحيوية المباعة في العالم مزورة، وهو الذي يرع الأدوية المزورة مضادات حيوية

هناك ضرورة ملحة للعمل على تعديل التشريعات الناظمة لاستخدام المضادات الحيوية، لضمان صرفها بموجب وصفة طبية؛ ووضع مبادئ توجيهية للعلاج الملائم والوصف المناسب للأدوية، مع إقامة برامج توعوية للأطباء والعاملين في القطاع الطبي ولل العامة حول مخاطر الاستعمال غير العقلاني للمضادات الحيوية، والثمن الذي سندفعه جراء هذه الممارسات

21 June
2015

ترامب و"العاصفة المثلية"

لا أعتقد أنه كان سيخطر على بال أبراهم لنكولن، أو ثيودور روزفلت، أو حتى رونالد ريغان، أن من سيحل محلهم لتمثيل الحزب الجمهوري في الانتخابات الرئاسية، هو شخصية كدونالد ترامب. فالحزب المحافظ عُرف باختيار مرشحه بعناية من قبل نخب الحزب، ليعبروا عن أيديولوجية الحزب المتمثلة في حكومة مركبة محدودة، ودور أكبر للمحليات، كما ينادي بالمسؤولية الشخصية، وحد أدنى من الرقابة على اقتصاد رأس المال. فلا يترك الحزب الجمهوري مجالاً للمفاجآت في اختيار مرشحه، بعكس الديمقراطيين المعروفين باختيارهم العاطفية والمفاجئة في كثير من الأحيان، عملاً بمقولته "democrats like to fall in love, while republicans fall in line".
فما الذي حدث هذه المرة، ليقرر الناخبون الجمهوريون الخروج عن هذه القاعدة، واختيار مرشح تتراوح مواقفه السابقة في معظم القضايا بين أقصى اليمين وأقصى اليسار، وأحياناً حتى في القضية الواحدة؛ رغم كل محاولات قادة وحكماء الحزب الحيلولة دون فوزه بالترشح؟
اجتمعت عدة عوامل للمرشح ترامب، لم تجتمع لمرشح بمواصفاته في السابق، وشكلت ما عُرف إعلامياً ("العاصفة المثلية") (Perfect Storm)

أول هذه العوامل، كان القلق الحقيقى عند كثير من الأميركيين البيض، والذين يشكلون جل ناخبي الحزب الجمهوري، من تضاؤل حجم تأثيرهم وتأكل أغلبيتهم، حتى إن التوقعات تشير إلى أنهم سيصيرون أقلية ضمن أقليات تشكل الدولة الاتحادية في غضون سنوات. فجاد خطاب ترامب العنصري ليلامس هؤلاء نفوسه لـ

كما صب عدم قناعة أعضاء الحزب الجمهوري في المرشحين الذين طرحتهم قيادتهم في السنوات الأخيرة، ابتداءً بجورج بوش الأب إلى روبرت دول، ثم بوش الابن، ونهاية بجون مكين وبيت رومني للذين خسراً أمام الرئيس باراك أوباما، في مصلحة تراصب. ولم يقتصر سخط الجمهوريين على اختيارات المرشحين، بل تعداه إلى سياسات حترهم، والتي رأوها فاشلة في مواضيع مفصلية، كالهجرة والضرائب. ولم يغفروا فشل هذه السياسات في تعطيل مشروع أوباما للتأمين الصحي وليس (CEO)، لقد نجم تراصب في إقناع ناخبيه بأنه سيكون قادراً على اتخاذ القرارات بعقلية المدير التنفيذي على طريقة السياسيين التقليديين الذين يراعون موازين القوى، ويؤمنون بفن الممكن. وساعدته في ذلك خلفيته كرجل أعمال، بالغت حملته في تسويق حجم النجاح الذي حققه في إدارة شركاته

لقد التقط تراث حالة الاستثناء لدى شريحة كبيرة من الأميركيين من اتفاقيات التجارة الحرة التي رأوا فيها إيجاباً يحقهم لصالح دول أخرى كالصين والمكسيك وكوريا الجنوبية، والتي أدت إلى فقدان الأميركيين الكثيرين من فرص العمل، وإغلاقآلاف المصانع، وانتقال الشركات إلى دول أخرى، فكان الهجوم على هذه الاتفاقيات جزءاً رئيسياً في خطاب تراثي النظر فيه حال وصوله إلى البيت الأبيض.

لم يستطع كثير من المصوتيين لترامب أن يهضموا وصول شخص كأوباما، بلونه واسميه، إلى موقع الرئاسة، واعتبروا وجوده في البيت الأبيض استفزازاً لهم؛ فسعى ترامب للهجوم عليه كلما سنت له الفرصة، وتتعهد بالغاء كل قراراته، والتخلص من إرثه في أول يوم له في البيت الأبيض. ورغم عدم واقعية هذا الوعد، إلا أنه أرضى غرائز هذه الشريحة من الناخبين.

في المجمل، استشعر ترامب حالة السخط لدى الناخبين الجمهوريين من اختيارات قيادتهم، ورغبتهم في إ يصل رسالة غاضبة لهذه القيادات، وكذلك رغبتهم في تجريب نمط جديد من القيادة، فضرب على كل الأفكار الحساسة لديهم، وقدم نفسه للعب دور المخلص، مأدياً إلى هذه النتيجة.

والسؤال المطروح الآن: هل سيتمكن تراصب من إقناع نسبة كافية من المستقلين الذين يشكلون العامل الحاسم في ترجيم الفائز في الانتخابات الرئاسية، كما أقمع ناخبي حزبه؟ وهل ستنتقل حالة السخط إلى الديموقراطيين الذين يعانون أزمة ثقة في مرشحة حزبهم، هيلاري كلينتون، بما يدفعهم لأن يمضوا يوم الانتخابات في بيتهم يرقبون من خلال محطات التلفزة تتنصيب تراصب رئيساً، أم أنهم "سيغلقون أنوفهم" وصوتون لها أخف الضرر؟

رجل بأمة

12 July
2015

في هذا الليل الحالك الجاثم على صدورنا، أصبحنا متلهفين لكل بصيص ضوء يبدد شيئاً من هذه العتمة. ويأتي هذا ألقبس من باكستان، ومن كراتشي بالتحديد؛ تلك المدينة التي ارتبط اسمها بالفقر والموت والتهميش

أما المناسبة، فهي وفاة أبي الفقراء ومنارة باكستان عبدالستار إدهي؛ الرجل الذي حاز عن استحقاق لقب قديس باكستان، وذلك تقديراً له على أياديه البيضاء التي طالت الشرائح المهمشة كافة في باكستان، وتعدتها إلى دول أخرى

بدأ عبدالستار رحلته مع الخير متوجلاً بسيارته المتواضعة في زقاق بكراتشي، ينقل المرضى المعوزين إلى المستشفيات، معملاً تقاعس الدولة عن القيام بدورها. وانتهت به الحال مديرًا لأكبر جمعية خيرية في باكستان، وبهذا العالم؛ إذ تمتلك جمعيته ٥٥ سيارة إسعاف، وعدها من طائرات النقل الطبي. ولم يقف عمل الخير لديه عند الإسعاف؛ بل بني الملاجئ للأطفال للقطاء والأيتام، وأبقى النساء المعنفات، وعلم أطفال الشوارع، وتکفل بعشرات الآلاف من الأيتام

ورغم شهرته التي طاولت الآفاق، لم يترك حياته المتواضعة، ولم يتخل عن تواضعه؛ فكانت تجده يجوب شوارع كراتشي وأرقتها يرفع الجثث الملقة وينقلها إلى المشرحة، ويقوم بتغسيلها وتكفينها بنفسه

ورغم حجم إنجازات هذا الرجل، فإنه لم يجد له مكاناً في سجلات جائزة نوبل التي رشح لها أكثر من مرة. إذ يبدو أن "وصمة" الاسم والمظهر لا تتناسب مع شروط الجائزة التي لو شنتها السياسة. لكن جائزته الكبرى تكمن في المكانة التي يحتلها في قلوب الفقراء والمهمشين الذين نذر حياته للتخفيف عنهم ورعايتها

ويمرض عبدالستار، وتعرض عليه الحكومة إرساله للمعالجة في الخارج. لكنه يؤثر أن يعالج حيث يعالج الفقراء الذين نذر حياته لهم، لتقبض روحه عن ٩٠ عاماً، تاركاً إرثًا كبيراً من الأعمال الخيرية، ومخلفاً شريكته في رحلة الخير بلقيس وأربعة من الأبناء، لم يترك لهم إلا بيتاً متواضعاً من غرفتين، لكنه ترك اسمًا لرجل بأمة

رحل عبدالستار إدهي وكثيرون منا لم يسمعوا باسمه. لكننا نحفظ عن ظهر قلب أسماء ملوك الطوائف وأمراء الحرب وسماسرة السلام! أليس هذا الإطار الذي أرادوه لنا؟

19 July
2015

موسم البحث عن "البوكيمون"

تجدهم في الشوارع والأزقة، وفي المقاهم، وفي جامعاتهم، وبيوتهم وأماكن عملهم، وحتى في سياراتهم... عيونهم مغروزة في هواتفهم الذكية، لا يكادون يرفعون رؤوسهم؛ ليس من باب غض البصر ولا الحياء، وإنما لأنهم يبحثون وحوشهم الصغيرة

لعبة مثيرة للجدل، شغلت العالم، وانتشرت كالنار في "البوكيمون" (Pokemon)، "لعبة البحث عن البوكيمون" الهشيم مؤخرًا، عابرة الحدود والأعمار، وإن شكل الشباب والفتيات وقودها الرئيس؛ فقد حطمت في الأيام القليلة التي تلت إطلاقها أرقاماً قياسية في عدد مرات التنزيل فاقت برامج وألعاب أخرى شهيرة، بنسبة ٧٧٪ في غضون أسبوع واحد، لتصل (Nintendo) مما أدى إلى رفع قيمة أسهم الشركة المنتجة إلى أعلى مستوياتها، وهي التي كانت تعاني تعثرًا في السوق! ولتحقق نجاحاً غير مسبوق في عالم الألعاب الإلكترونية، مما سجل ما يقدر بـ ٣ مليارات دولار أرباحاً حققتها الشركة خلال أيام

لقد فاجأ حجم الشغف بهذه اللعبة الجميع، بمن فيهم مخترعوها. حتى إن خوادم أجهزة الكمبيوتر في الشركة الصانعة لم تعد قادرة على استيعاب هذا الكم الهائل من المشتركين

لقد جمعت هذه اللعبة (الظاهرة) بين العالم الحقيقي والافتراضي، وطغّمته بعض الخيال، فتمكنت من زحمة الشباب من أماكن كمونهم في عالم الواقع الافتراضي، إلى واقع معزز بالوهم، ليكتشفوا للمرة الأولى مدنهم وأحيائهم، ويقصدوا أماكن لم يصلوها من قبل

لقد وجد الشباب فيها فرصةً للبحث عن أهداف متوهمة، في زمن فقدوا فيه أهدافهم الحقيقة. إذ جاءت هذه اللعبة لتخاطب فيهم غريزة الإنجاز والمنافسة وتحقيق الأهداف، حتى ولو كانت أهدافاً افتراضية

إن غالبية المهووسين بهذه اللعبة هم من الجيل الذي أحبَّ القصة الأصلية لـ"البوكيمون" في طفولتهم، من خلال مشاهدتهم لها ضمن برامج الرسوم المتحركة، وعرف النسخة التسعينية من اللعبة. فجاءت هذه اللعبة لتحرك فيهم الحنين إلى الطفولة، ووفرت لهم فرصة اللقاء بأصدقائهم الصغار المتحررين من سجن أجهزة التلفاز، ليجوبوا الأحياء والشوارع والأزقة والمنتزهات، وحتى دور العبادة، شوقاً للاقائهم

قد يكون من الصعب على واحد مثلني عاش في زمن كان الهوا فيه يجمعون الطوابع والصور والعملات المختلفة، أن يستوعب استبدال كل ذلك بجمع وحوش رقمية. لكن من ابتعد هذه اللعبة يعي تماماً سيكولوجياً وحاجات الجيل المستهدف بها

فقد التقط مخترعوه هذه اللعبة تعطش هذا الجيل لتحقيق أهداف قد لا تكون في متناولهم في الحياة الحقيقة، ليقوموا بإضافة بعض الخيال المحسوب إلى الواقع، عليهم يستطيعون إشباع شغفهم ومخاطبة الوهم الذي يملأ أرواحهم

سيخبر بريق هذه اللعبة كما خبا بريق غيرها، لينتقل الشباب إلى لعبة أخرى تضفي مزيداً من الخيال على الواقع أصبهوا فيه تائهي، يبحثون عن هدف أو إنجاز ما، وهم لا يدركون أنهم بينما يجوبون الآفاق، بحثاً عن الوهم، ويلهثون في أثر السراب، إنما يسهمون في تضليل ثروات هذه الشركات، وتحقيق أرباح لها تفوق الخيال

16 Aug
2016

المشكلة ليست في العشب

خدوا عيني شوفوها فيها؟، هكذا كان رد كاتب كلمات الأغنية الشعبية التونسية الأشهر، على المتسائلين عن سر إعجابه بحبيته السمراء: "قالوا لي إش عجبك فيها؟!". وبهذه الإجابة البسيطة البليغة، عبر الشاعر عن سر التباين في الرأي واختلاف وجهات النظر بين الناس؛ إعجاباً وشغفاً بأشخاص، وأشياء قد لا تكون ذات قيمة من وجهة نظر البعض. ذلك أنهم لا يرون ولا يدركون أن هذه المشاعر الملتهبة حباً وإعجاباً، تنبع من دواخلنا، مختلطة بعواطفنا وبطريقة تقديرنا لها، أكثر من ظاهرها أو مما تبدو عليه في الواقع أو بنظر الآخرين

ففي تقديرنا للأشخاص أو الأشياء أو الأحداث، نركز عادة على جانب واحد فيها على حساب الجوانب الأخرى. وغالباً ما يكون هذا الجانب هو الجانب الظاهر، أو ذلك الذي نرغب فيه، مما يعطيه قيمة أكبر من قيمته الحقيقية. ويبقى هذا الجانب يتضخم حتى يطغى على محمل الصورة، فيترك لنا انطباعاً واهماً يضفي على الأشياء أو الأحداث صفة الكمال

إذ إن الدماغ البشري لا يستطيع التعامل مع جوانب المواضيع كافة أو الصورة كاملة ضمن إطار معين، فيختار بعضاً من مكوناتها، يركز عليها ويحللها، وبالتالي يحكم على الأمور من خلالها. وفي هذه الأثناء، غالباً ما يتعمق عن الأمور الاعتيادية، ويأخذها كمسلمات، حتى لو كانت ذات قيمة. كما يعطي الدماغ وزناً أكبر لجوانب السلبية والتي قد تهدد استقرارنا، من تلك الإيجابية التي قد تجلب لنا المتعة

فنحن غالباً ما نرى العشب أكثر خصراً في حدائق الجيران، وهو ما ينطبق على معظم مناحي حياتنا: كالانتقال إلى عمل آخر، أو تغيير البيت أو السيارة. فإذا ما كان الأجر المالي هو ما يزعجنا في عملنا، فإن أي عمل بأجر أعلى سيضرر إليه كعمل أفضل، حتى لو كان كثيرة السلبيات. ذلك أن أدمنتنا ستترك على عامل الأجر المادي، فيطغى على الجوانب الأخرى وحتى في حياتنا الأسرية والعلاقات الزوجية، فإن كثيراً من حالات عدم الوفاق بين الزوجين تتمحض عن وجود سمة سلبية في أحدهما أو كليهما، لا تثبت أن تضخم، خاصة إذا ما قورنت بإيجابية أخرى عند شخص آخر، فيكون ذلك مدعامة لزيادة الأجر تعقيداً، و يجعل المقارنة ليست في مصلحة الشريك

؛ وهي عملية الانحياز المعرفي (Focusing) "هذه الظاهرة يعرفها علماء النفس ر"وهم التركيز الناتج عن إيلائنا أهمية مبالغ فيها لجانب واحد من الحدث، والذي بدوره يؤدي إلى إطلاق أحكام خاطئة وتبعات بعيدة عن الواقع

هذه الظاهرة هي التي تحكم تباين وجهات النظر حول مفاهيم مختلفة، كالسعادة أو راحة البال، وذلك عندما نركز على ما نفتقده ويملكه الآخرون، لنختلف فيه هذه المصطلحات، رغم أن الواقع غير ذلك

فتجدنا نستمتع بانتظار الأحداث أكثر بكثير من استمتاعنا بالأحداث نفسها. إذ إن انتظار الانتقال إلى عمل جديد، أو تبوءة منصب أعلى، أو شراء بيت أو سيارة، يجلب لنا لحظات من السعادة أكثر بكثير من تحصيل هذه الأمور، لأننا نبالغ في تقدير مساحة الحيز الحقيقي الذي ستشغله في حياتنا. ولحظة حصولنا عليها، نبدأ التعامل معها كمسلمات، فتقوم أدمنتنا بالتركيز على جانب معينة منها لتشكل لنا صورة وهمية جديدة تدفعنا إلى ملاحة وهم جديدة

العشب في حديقة الجيران ليس أكثر خصراً من عشب حدائقنا. لكن علينا الاعتناء بعشبنا بما يكفي ليحضر أكثر

30 Aug
2016

كوكتيل وكفتة وسرطان

عشرات الاتصالات وردتني من أصدقاء ومرضى طالبين مني التعليق على الخبر الذي تناقلته وسائل إعلام مؤخراً، على نطاق واسع، بشأن تمكّن شخص نمساوي من شفاء آلاف المرضى المصابين بالسرطان وأمراض أخرى مستعصية، باستخدام مزيج من عصير الخضروات

ورغم قناعتي المسبقة بعدم صحة الخبر؛ إذ إن الطب لا يعرف "الرصاصة السحرية" التي تشفى من كل العلل، وأن لله ستنا كونية لا تتبدل ولا تتغير بالأمانٍ وإنما بالعمل المستند إلى قوانين العقل والمنطق، وأن المعرفة البشرية عملية تراكمية لا يمكن أن تأتي من الفراغ، فإنني حاولت جاهداً أن أبحر في محركات البحث على شبكة الإنترنت علني أجد أصلاً لأي دراسة علمية رصينة عن هذا النوع من العلاج، وأن أصل إلى سجل المرضى الذين "عولجوا" بهذه الطريقة. إلا أنني فشلت في مسعي. وكل ما وجدته معلومات يغلب عليها الطابع الصدفي. وهذا لا يعتد به في المعايير العلمية

فالسرطان مرض معقد؛ بل هو عدة أمراض تشتراك في الاسم لكنها تختلف في الأصول والسمات والآلات. لذلك، من المستبعد أن يكون علاجه بطريقة واحدة، فما بالك إذا كانت الطريقة لا تستند إلى دليل علمي

من طبع الإنسان انتظار المعجزات التي تغير واقعه إلى آخر أفضل. وقد أخبرنا القرآن الكريم أن طلب اجترار المعجزات كان ديدن الأمم الغابرة مع أنبيائهم. لكن هذه المعجزات كانت على نطاق ضيق جداً، ولحكمة تتجاوز المعجزة نفسها إلى إقامة الحجة على طالبيها. كما يزخر الموروث الشعبي للأمم بقصص انتظار المعجزات التي تنتشل الإنسان من الفقر والمرض والظلم

لا شك أن الإنسان يعيش على الأمل. لكن ذلك يجب أن لا يعطّل العقل الذي يجب أن نحكمه في مختلف مناحي حياتنا، حتى إن اصطدم مع رغباتنا وأمنياتنا

عوده إلى موضوع "كوكتيل الخضار"، فلا شك أن للتغذية السليمة دوراً في الوقاية من السرطان، وفي مساعدة الجسم على تقبل وتحمل العلاج. لذلك، تجد مختلف مراكز السرطان تستعين بمختصين في التغذية السريرية. لكن أي نظام غذائي يجب أن يُؤخذ في سياقه الصحيح وتحت إشراف المختصين، وأن لا يبالغ في التوقعات، وإلا أنهينا إلى ما يشبه قضية "سيّم الكفتة" سيّم الذكر، والذي جعل منا أضحوكة للعالم. فاستبدال اسم "عبدالعاطي" بـ"رودولف" لن يضفي على الأمر مصداقية

يبقى هنا أن أؤكد على المسئولية الملقاة على عاتق الصحافة في التثبت من صدقية المعلومة قبل نشرها، خاصة إذا ما كانت هذه المعلومة تتعلق بحياة البشر. ويساعدها (الصحافة) على القيام بهذا الدور، الاستعانة بأصحاب الخبرة

6 Sep
2016

طريق الملياردير المتشدد

حكاية الملياردير الهندي المتشدد، تدور حول رجل الأعمال "ميترًا"، والذي تحول خلال سنوات قليلة، من متشدد في مدينة دلهي، إلى رجل أعمال "لندني" يمتلك ثروة تفوق المليار ونصف المليار دولار

هي ليست حكاية فريدة من نوعها؛ فهناك كثيرون من الذين انتبهوا قبل غيرهم إلى التغيرات الثورية في مجالات تقدم فرضاً اقتصادية جديدة، خصوصاً في مجال المعلومات والاتصالات. إذ لا يحتاج الإنسان، بالضرورة، هنا إلى رأس مال، وقنوات تجارية، بقدر حاجته إلى روح المغامرة والإصرار، وقبل ذلك عيون مفتوحة وخياري واقعي. فحققوا ثروات كبيرة أو طائلة، وربما خالية

ينصرف الذهن هنا إلى أسماء أخرى أصبحت عالمية، مثل مؤسس شركة "فيسبوك" الشاب مارك زوكربيرغ، ومؤسس شركة "أبل" الراحل ستيف جوبز، ومؤسس موقع "علي بابا" للتجارة الإلكترونية "جاك ما". وغيرهم كثيرون من الذين انتبهوا مبكراً إلى التحولات الكبرى في التقنيات والأعمال في دول الفرص والأحلام، حيث تجد الفكرة الجيدة من يمولها ومن يسجلها ليخدمها. هذا بالإضافة إلى السوق القريبة الكبيرة، وغير ذلك من العوامل التي تسرع إنجام الأفكار والمشاريع قبل أن يقدمها آخرون في أماكن أخرى من العالم. وأصبح هؤلاء أمثلة وحكايات نقرأها ونشاهدها على الشاشات الذهبية والفضية. هناك أيضاً نجاحات مهمة ذات بعد محلي، حققت لأصحابها دخولاً جيدة، ورفعت من مرتبهم اقتصادياً واجتماعياً. من ذلك ما نشرته "الغد" في ٩ آب (أغسطس) الماضي، نقلًا عن محطة "العربية"، بعنوان "السنابيون السعوديون يجنون ربع مليون شهرياً من الإعلانات"، في إشارة إلى نجوم وسيلة التواصل الاجتماعي "سناب شات" واسعة الانتشار في السعودية. إذ يعمل هؤلاء كأفراد من دون وجود مؤسسة أو شركة خلفهم، فلا يتطلب الأمر منهُ أكثر من نشر مقطع فيديو يرسله المعلن لهم، ليضعوه بدورهم أمام متابعيهم، ويجذبوا ملاً وفيرًا وسهلاً، ربما فاق مداخيل كثير من مؤسسات الدعاية التقليدية

ثمة أيضاً من يقوم بالشيء ذاته في الأردن. ورغم أنني لم اطلع على تقارير وأرقام حول ذلك، فإنه من المعلوم لمتابعي وسائل التواصل الحديثة، أن هناك زبائن معلنين من خلال مشاهير هذه الوسائل في بلادنا، من نحو "سناب شات" وغيرها. هؤلاء النجوم في كثير من الحالات هم مجرد أشخاص عاديين، من أيّ مهنة أو طبقة، تتوفّل لديهم من المهرات ما يجذب أعداداً كبيرة من الناس نحوهم، وبما يغري المعلنين للوصول إلى شبكتهم الخاصة

هذه الفرص تضع أمام الناس، وخصوصاً شبابنا المثابر، فرصاً لتحقيق النجاح والحصول على الدخل الجيد، بأقل تكلفة، من خلال توظيف مهاراتهم في المجال الذي يناسبهم، والمنافسة الشريفة في الوقت المناسب، محلياً وعالمياً، من دون الحاجة إلى المرور عبر المسارات التقليدية، والمعيقات المادية والبيروقراطية وغيرها. كما أن ذلك يتطلب فهماً اجتماعياً من الأسر وممؤسسات التعليم والتدريب، للإسهام لمثل هذه الأفكار والمبادرات وتقبيلاً ودعمها. فالملياردير "ميترًا" مثلاً، تشدد من مدینته مبكراً لإصرار والده على أن يكون ابنه مهندساً، بخلاف رغبة الفتى العنيد

18 Oct
2016

نرجسية العالم الافتراضي

حب الشهرة والسعى إلى الحصول على تقدير الآخرين، غريرة متأصلة في البشر، ولا تقتصر على زمان أو مكان ما. لكنها قد تحول إلى مرض إذا ما استحوذت على جل اهتمامنا، وأصبحت المحرك الأساسي لسكنوننا

نجلس خلف شاشات حواسينا وأجهزتنا الموصوفة بالذكاء ساعات طويلة، نقلب صفحاتنا على مواقع التواصل الاجتماعي؛ نراقب ردود أفعال الأصدقاء، الحقيقيين منهم والمفترضين، على صورة أو خاطرة قمنا بنشرها، فنحتسي عدد حالات الإعجاب والتعليقات الم賈ملة، ونسر لتعليق هنا أو مجاملة هناك

ترى، هل أصبحت وسائل التواصل الاجتماعي مرآيانا العصرية التي نديم النظر فيها إلى وجوهنا، نتعبد بها بحيث بتنا نعمل جاهدين على تحسين مظهرنا الخارجي، ونرسم لأنفسنا صوراً مغفرة في الإيجابية نسعى من خلالها إلى الحصول على إعجاب الآخرين بظواهرنا، لنرمم من خلاله الشرخ الذي أصاب دواؤهنا؟

فنحن إذ نظهر على مواقع التواصل، فإننا نختار أفضل ما عندنا؛ أفضل صورنا، ومناسباتنا، وأفكارنا. نهتم بتحسينها على حساب جوانبنا الأخرى التي نهملها لأنها غير بادية للعيان

في عصر الإنترنت ومواقع "Narcissus" فلو عاش الصياد الإغريقي الذي أعطى للنرجسية اسمها التواصل الاجتماعي، لوجدتها بديلاً مثالياً لغديره الصافي في غابات اليونان، والذي ظل عاكفاً عليه يتعبد انعكاس صورة وجهه على صفتته. لكن الفرق الجوهرى هنا أن المرأة تعكس صورنا الحقيقة من دون رتوش، بينما تعكس وسائل التواصل صوراً اخترناها بعناية، وتلاعبنا بها

تشير العديد من الدراسات إلى العلاقة الطردية الواضحة بين النرجسية وعبادة الذات وبين إدمان استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، وعدد مرات الظهور عليها. كما خلصت دراسات أخرى إلى أن طلبة الجامعات أصبحوا أكثر نرجسية وأنانية، يبعدون ذواتهم ويضيقون ذرعاً بالرأي الآخر، ويردون عليه بشراسة مبالغ فيها

فالنرجسية تؤدي إلى تضخم الـ"أنا" والشعور بالعظمة، ما يجعلنا بالغى الحساسية تجاه أي نقد يوجه إلينا، ونقابله بردة فعل مبالغ فيها. كما تجعلنا متطلبين للمديح والم賈ملة والإشادة. والخطير في الأمر أن نستعيض عن النجاح الحقيقي بالاعتراف الخارجي الافتراضي، ونجعل من هذا الأخير مقياساً لإنجازاتنا وقيمتنا الحقيقية. فالاعتراف الخارجي يأتي كنتيجة للنجاح، لا بديلاً منه

ظاهرة برادلي أو التقية الانتخابية

15 Nov
2016

سيسليل الكثير من الخبر في بحث وتحليل ظاهرة أو ما سمي بـ"تسونامي" تراصب وسيحاول الباحثون سبر غور الأسباب الحقيقة التي قلبت موازين القوى لصالحه، لكنني أقف هنا عند ظاهرة جديرة بتسلیط الضوء عليها لأنها تتجاوز الانتخابات الأمريكية لتنسحب على كثير من استطلاعات الرأي في مختلف دول العالم، وهي ظاهرة التباين الفاضح بين نتائج استطلاعات الرأي ومخرجات صناديق الاقتراع. ترى ما الذي أدى إلى هذا الفشل الذريع لمراكز مهمة في استقراء النتيجة؟ فجميع مراكز استطلاع الرأي وأشارت إلى تفوق كلينتون في معظم إن لم يكن جميع الولايات المتأرجحة. حاول البعض اتهام هذه المراكز بالتحيز، لكنها مراكز تتمتع باحترافية عالية ولا يمكنها أن تضحي بسمعتها، كما أن تلك المحسوبة على الجمهوريين مثل "فوكس نيوز" لم تنسد عن القاعدة

لتفسير هذا التناقض دعونا نعود للتاريخ قليلاً، وتحديداً انتخابات حاكم ولاية كاليفورنيا عام ١٩٨٢، فقد ترشم لهذه الانتخابات عمدة لوس أنجلوس توم برادلي ذو الأصول الأفريقية مقابل مرشح أبيض عن الجمهوريين، في ولاية تعتبر من اعتى حصون الديمقراطيين ولكن يغلب على سكانها العرق الأبيض. خلصت جميع استطلاعات الرأي قبل واتاء العملية الانتخابية إلى تقدم برادلي وبفارق كبير حتى أن البعض سارع لإعلانه فائزاً قبل إغلاق صناديق الاقتراع ولكن ساعة اعلان النتيجة صدم الجميع بفوز منافسه الأبيض

خلص الباحثون إلى أن نسبة كبيرة من الناخبين قاموا بالكذب على المستطلعين وعلى أنفسهم حيث تظاهروا بالتصويت لبرادلي لكنهم عندما اختلوا بالصناديق خلف الستارة كانوا أكثر انسجاماً مع حقيقة دواخلهم ورغباتهم فوضعوا الاسم الذي يماطل لونهم ليظهر بعدها صحيح أن كلينتون ليست (Bradley effect) مصطلح اشتهر في السياسة الأمريكية باسم عامل برادلي من أصول أفريقية وقد لا تقل "بياضاً" عن منافسها ولكن حقيقة وصم تراصب ومؤيديه بالعنصرية حدت ببعض جمهور الناخبين إلى النأي بأنفسهم عنه حتى لا يتم وسمهم بالعنصرية حتى ولو بينهم وبين أنفسهم

وهي أن لا يعبر الإنسان عن رأيه الحقيقي وإنما يحاول التماهي مع ما يعتبر مقبولاً اجتماعياً أو أخلاقياً وهذا السلوك الاجتماعي يعتبر المعضلة الأخطر التي تواجه استطلاعات الرأي في مختلف دول العالم

قد لا يعني "الكتلة الصلبة" المؤيدة لتراصب أن توصم بالعنصرية لكن هنالك نسبة من الناخبين يهتمون أن لا يضبطوا متلبسين بتأييد شخص لا يأنف من التبرج بكراهية واحتقار الآخر

قد نتفهم أن يقوم مواطنو الدول التي تجر على حرية التعبير وتحاكم الناس على أفكارهم وميلتهم السياسية باعتماد مبدأ "التقية السياسية" وذلك بالتستر على حقيقة معتقداتهم ومذاهبهم الفكرية والسياسية خشية الملاحقة والتضييق عليهم، لكن ان نجد هذا يحدث في أقوى الديمقراطيات وفي الدول التي تنظر للحرية الفردية بذلك أمر يستحق التوقف عنده طويلاً

22 Nov
2016

عندما يصبح النفس هواء

"أمضيت عطلة نهاية الأسبوع بين دفتري كتاب "عندما يصبح النفس هواء" وبالذى يروى فيه جرائم الدماغ والأعصاب الأمريكى ببول كالانى، يومياته مع مرض سرطان الرئة فى مراحله المتقدمة،

طبيب شاب في مقتبل العمر، يسير نحو المجد بتتسارع: تخطب وده كبريات المراكز الطبية، ومسكون بالأسئلة الوجودية التي يرقبها يوميا في عيون وتساؤلات مرضاه. لكنه لم يتخيّل يوماً أنه سيضطر إلى اختبار هذه الأسئلة على نفسه، ليتحول في لحظة فاصلة، أعقبت تصفحه شاشة الكمبيوتر بين مقاطع صور الأشعة التي تخذه، من "مراقب إلى مُراقب"، وأنه سيخلع معطفه الأبيض ليسعّي ضمّونه بآخر طالما شاهده على مرضاه، وكأنه يخلع معطفه كطبيب يكون قد خلع عنه هويته أيضاً ليكتسب أخرى جديدة. فالمرض يفرض علينا تغييرات جوهيرية في مسار حياتنا، تضطرنا إلى إعادة النظر في أولوياتنا

وكذا معظم الأطباء، قام د. كالانى بتأجيل تعلم كيفية الحياة والاستمتاع بها إلى حين إنهاء تدريبه، لكنه في اللحظة التي أصبح فيها مستعداً للوقوف على اعتاب الحياة التي كان يحلم بها، وجد نفسه مكرهاً على تعلم كيف يبدأ بالانسحاب من الحياة لمواجهة الموت

ومن موقعه الجديد، بدأ ينظر إلى الأسئلة الوجودية المتعلقة بالحياة والموت والمرض والصحة من زاوية لم يختبرها من قبل. ويناقش جدلية العلاقة بين الطبيب والمريض، كونها أبعد من مجرد عملية صماء لعلاج المرض أو بعض أعراضه؛ فواجب الطبيب لا يكمن في درء الموت أو في إعادة عقارب الساعة إلى ما قبل المرض، وإنما في احتضان المرضى وأهليتهم، ومساعدتهم على إيجاد معنى جديد لوجودهم يساعدتهم على تحطيم هذه المرحلة الحرجة من حياتهم

تفاجأ بول بالموت منذ التقائه أول مرة عندما كان طالباً في كلية الطب، واضطر للتعامل مع جثث الموتى كجزء من متطلبات مادة التشريح. وقد صدفه تحدّر المشاعر الذي اكتسبه وزملاءه بمزروعه الوقت، ومن طريقة تعاملهم مع هذه الجثث البائسة كمادة لا قيمة لها، عندما نزعوا عنّها إنسانيتها وتعاملوا معها بحيادية باردة

ومن موقعه الجديد، حاول كمريض بناء جسر بين رؤيتين للمرض والحياة والموت على صفي النهر؛ كونه قد خبر المكانين، وذلك بإعادة الاعتبار الكلمة كأداة فعالة للشفاء. فعندما لا يكون للموضع مكان، لا يجد الجرائم أمامه سوى الكلمة أداة فعالة للتخفيف عن المريض

عبر الكاتب عن أحاسيسه وألمه وانفعالاته خلال رحلته مع المرض، وهو يرقب أحلامه المتبدلة تهوي أمام ناظريه، ومستقبله الذي صار يتسرّب من بين يديه بانسانية بعيدة عن البطولات الراقصة والأمنيات الخيالية. فقبل أن يكون طبيباً، هو إنسان من لحم ودم وحواس. وصف لنا حاله في ساعات ضعفه وقوته، وإصراره على المحاربة واستسلامه

ويبرز موضوع الوجود مرة أخرى جلياً عندما يقف الكاتب عند مفترق طرق؛ خيار إنجاب طفل يعلم تماماً أنه سيخلقه وراءه، ليكون القرار بالإنجاب في التقاء جديد بين الحياة والموت، وابتعاث حياة جديدة من رحم أخرى آيلة للغربة

كتّيرون كتبوا عن ثنائية الحياة والموت. لكن ما يميز هذا الكتاب أنه يأتي من شخص خبر ثنائية العيش كطبيب ومريض لتكون رسالته الأخيرة أن نحاول أن نجعل لحياتنا معنى ما دعنا نمتلكها

استغل الدكتور كالانى ما سمح له به المرض من وقت مستقطع لمحاولة إتمام مذكراته؛ يغالب الهواء للحصول على دفقة يحولها إلى نفس. إلا أن الموت لم يسعفه في إنهاها، لتنولى زوجته مهمة إسدال الستار على مشهد الختام

كلفة الأمل

13 Dec
2016

تشير معظم الدراسات المنشورة إلى أن قسطاً كبيراً مما ينفق على الرعاية الصحية يتم إنفاقه على المرضى في عامهم الأخير، وأن معظم هؤلاء المرضى لم تكن لديهم فرص للشفاء؛ فأسام العناية المركزة في معظم المستشفيات مليئة بمرضى لا يملكون فرصة حقيقة للشفاء، والغرض الذي أنشئت لأجله هذه الأقسام المكلفة هو معالجة ودعم المرضى المصابين بأمراض طارئة، والذين يملكون فرصاً حقيقة للشفاء

ففي الولايات المتحدة، يذهب حوالي .٣٪ من الإنفاق الحكومي على الصحة إلى ٥٪ من المواطنين الذي يوافيهم الأجل في تلك السنة

لقد ساهم تشتت الناس بالأمل ومطاردة المعدلات في رفع كلفة الفاتورة العلاجية إلى أرقام فلكية، حدث بالعديد من دول العالم إلى التحذير من إفلاس القطاع الصحي، وعدم قدرته على تلبية احتياجات الناس الصحية في حال استمر الوضع على ما هو عليه

فعندما تصبح مطاردة فسحة الأمل، على ضيقها، بالإضافة بضعة أيام معدودة إلى حياة المريض بغض النظر عن نوعية هذه الحياة، هي السمة الغالبة على ممارستنا الطبية، نجد أنفسنا وقد أضعنا الهدفين معاً. وهناك دراسات كثيرة تشير إلى العلاقة العكسية بين الإنفاق على المريض في المراحل المتأخرة من مرضه، والتوسيع في الإجراءات الطبية والمدة التي يعيشها المريض، وجودة الحياة خلال هذه المدة

لقد أحدثت التكنولوجيا الحديثة نقلة نوعية في العملية العلاجية ونتائجها. لكن إساعية استخدامها من قبل المرضى والأطباء أدت إلى زيادة معاناة العديد من المرضى وأهاليهم، وجعلتهم معلقين بحبال وشاشات الأجهزة، والمحاليل الوريدية، من دون أدلة علمية تدعم هذه التدخلات

ولا بد لنا من استخدام التكنولوجيا الحديثة، من أدوية وأجهزة، استخداماً عقلانياً، بحيث توجه إلى مستحقها، وإلى أولئك الذين يستحدث فرقاً في حياتهم كما ونوعاً، وإلا وجدنا أنفسنا قريباً بحاجة إلى أضعاف عدد الأسرة المتوفرة حالياً، وأضعاف الميزانيات المخصصة للصحة، من دون أن يتترجم هذا الإنفاق إلى تحسن حقيقي في مؤشرات الصحة والرفاه

جميل جداً أن يتحلى الإنسان بالأمل، لكنه الأمل المبني على معطيات عقلانية. وهنا يأتي دورنا كأطباء في أن نساعد المريض على اتخاذ القرار السليم فيما يتعلق بحياته ومرضه، وأن نوصل له الحقيقة بصدق وشفافية، لأن نساهم في تعلقه بحبال الهواء

وهنا يأتي دور الرعاية التلطيفية، وتدخلها المبكرة؛ إذ تساهم في التخفيف من معاناة المريض، والتقليل من عدد التدخلات غير المجدية

نحن مدعوون للتمسك بالأمل، لكن بواقعية؛ وأن نوازن بين المنافع والضرار. وفي حال تغليب ضرر التدخل الطبي على نفعه، يجب علينا التوقف

"أرجيلة"

15 Nov
2016

نتائج لافقة ومزعجة تلك التي تم خصبت عن دراسة أجراها مجموعة من الباحثين، من مكتب مكافحة "Respiratory Medicine" السرطان في مركز الحسين للسرطان، بقيادة د. فراس هواري، ونشرت في مجلة عندما أجروا مقارنة للوظائف الحيوية، وكفاءة جهاز التنفس، والجهاز الدوري، لدى طلبة الجامعات الأردنية ضمن يواضبون على تدخين "الأرجيلة"، مقارنة بأقرانهم من غير المدخنين.

فقد وجد الباحثون أن مدخني "الأرجيلة" معرضون للإصابة بأمراض الجهاز التنفسي بنسبة ٧٪ أعلى مما لدى غير المدخنين، مع ما يصاحب ذلك من أعراض مزعجة ومؤلمة، مثل السعال المزمن، وضيق النفس، وإخراج البلغم.

وخلصوا إلى أنه على عكس ما كان يعتقد عن دور التدخين في إنقاص الوزن، فإن مدخني "الأرجيلة" أكثر وزناً من نظرائهم بحوالي ٦ كيلوجرامات. وهو ما يزيد غالباً إلى الطقوس التي تحيط بـ"الأرجيلة": من فترة جلوس لساعات طويلة، وتناول الطعام والشراب بوفرة أثناء التدخين برفقة الأصدقاء أو العائلة.

أما مؤشرات وظائف الرئة المختلفة، فقد سجلت قراءات أسوأ بكثير عند المدخنين؛ مما يعكس عدم قدرة الرئة على القيام بوظيفتها.

أما الأمر المهم الآخر الذي خرجت به الدراسة، فيتلخص في القدرة المتدنية بشكل كبير لدى المدخنين، على أداء التمارين الرياضية؛ لأن العضلات سرعان ما تجهد، وبالتالي يصبح من الصعب الاستمرار في الممارسة عليها. وأظن أن ذلك يشكل جواباً شافياً لأولئك الذين يتساءلون عن أسباب ضعف أداء رياضيين في الرياضات المختلفة.

وكان الدكتور هواري قد أطلعني أنه بعد عرضه، في أحد المؤتمرات المتخصصة، لنتائج دراسة سابقة عن الأداء البدني لطلبة الجامعات الأردنية، تقدمت منه إحدى الحاضرات متسائلة: هل يعقل أن تكون هذه المؤشرات لشباب في العقد الثاني من العمر؟! إذ إنها كانت تشبه مؤشرات الأشخاص whom في العقد السادس في دول العالم المتتطور.

هذه النتائج يجب أن تؤخذ على محمل الجد من قبل صانعي السياسات الصحية، وأن تحفزهم على الإسراع في تطبيق قانون منع التدخين. هذا القانون الذي حاولت الحكومة السابقة جادة تطبيقه، لكنها اصطدمت بمقاومة شرسة من قبل "لوبيات" أصحاب المقاقي، مما دفعها للتراجع عن تطبيق القانون.

المشكلة الكبيرة في "الأرجيلة" أنها كسرت كل التابوهات الاجتماعية، وأضحت مقبولة اجتماعياً، عابرة للطبقات والأعمار يدخلها الكبير والصغير، ويدخنها أطفال في حضرة الأهالي. كما تكمن خطورة هذه الآفة التي انتلقت من منطقة للاجئات العالم كاللوباء، أن معظم المدمنين عليها هم من الشباب، بما يترتب على ذلك من متاعب صحية مبكرة، ترهق العماد الاقتصادي للدول.

ما لم نتبه إلى خطورة وجدية هذه القضية والكارثة الصحية، فإننا على موعد في العقود المقبلين مع تضاعف في نسب الأمراض غير السارية، والتي تعتبر اليوم مسؤولة عن ٧٥٪ من الوفيات بين الأردنيين، وستبقى تشكل عبئاً صحياً واقتصادياً ما لم نستطع التعامل معها بمنهجية وحذر.

